

خالد محمد خالد

# الوطنية المشرقة من يريد أن يجيب



الطبعة السابعة

ربيع أول ١٤٢٥ — أبريل ٢٠٠٣

---

---

جميع الحقوق محفوظة للناشر

---

---

الناشر

دار المقطم للنشر والتوزيع

٥٠ شارع الشيخ ريجان — عابدين

القاهرة

ت: ٧٩٥٨٢١٥ — ٧٩٤٦١٠٩

فاكس : ٥٠٨٢٢٣٣

email: elmokatam@hotmail.com

الإهداء

إلى الشباب أولاً ..

وإلينا جميعاً ..

أقدم هذا الكتاب

www.alkottob.com

www.alkottob.com

## مقدمة

أخشى أن تُشعركم كلمة "الوصايا" بأن من ورائها "واعظاً" يُملى عليكم مواعظه. أو يخاطبكم من فوق منْصَّة الأستاذية ..!!  
من أجل هذا، يطيب لى أن أبدأ حديثى معكم قائلاً:  
- أيها الأصدقاء.. لستُ واعظاً ولا معلماً. إنما أنا إنسان - مُجرّد إنسان - يحب الناس كثيراً ويرجو لهم الخير جميعاً ..  
وهو لهذا، إذا رأى هُدًى أو عرف خيراً؛ سارع فدعا الناس إليه، وبأدر، فحضّهم عليه.. حتى ذلك الخير الذى قد يعجز هو عن إدراكه - يجد غبطة نفسه جميعاً فى أن يدلّ عليه كل قادر، وينادى إليه كل مُثابر.

\* \* \*

ولو أطعتُ بعضَ خواطرى، لاحتفظتُ بهذه "الوصايا" لِنفسى أقيسُ بها تقدمها؛ وأستحثُّ بها تخلفها. وأحملها على السير وفقها ما استطاعت لهذا سبيلاً ..  
لكن طبيعة "الكاتب" غلبتنى، وأيضاً طبيعة "الإنسان" الذى يرى

مصيره، ومصير الناس كلهم شيئاً واحداً.. ومن ثم فواجهه ألا يرى  
 لنفسه وحدها، وألا يفكر لنفسه وحدها، نافعة، أو رأياً يحسبه صواباً..  
 ورُبُّ مبلغ؛ يكون أوعى من سامع ..  
 ورُبُّ قارئ؛ يكون أهدى من كاتب..  
 ولئن جاءت هذه الوصايا "عشرًا" في تعدادها. فإنها "واحدة" في  
 موضوعها ..!!  
 ففيها جميعاً تسرى وحدة الغرض.. وبينها جميعاً يؤلف تتابعُ  
 الغاية..

وإنها لتبدأ وتنتهى فى خدمة محاولة واحدة - هى انتصارنا على  
 ضعفنا. وتمكيننا من الشد على "دقة" الحياة بأيدينا

\* \* \*

ولم أرِدْ لهذه الوصايا أن تكون "مدينةً فاضلة" أسوق الناس إليها..  
 فإن ولاءنا للحرية، ينأى بنا عن أن نُخضع "الروح الإنسانى" لآى  
 تخطيط .

وحسب هذه الوصايا إذن، أن تكون للقارئ دليلاً يستعين به على بناء  
 "مدينته الفاضلة" بنفسه، ولنفسه، كما يريد هو، وكما يختار..

وقديماً، سَمِعَ أحد الحكماء رجلاً يقول فى مرارة النادم: "يا ليتنى  
 لقيتُ مَنْ يقول لى"

فأجابه الحكيم قائلاً: - "يا ليتك عملت بما كان معك" ..!! وهذا  
 حق.. فمع كل منا هداه .

ومزية الخير قدرته على أن يجعل نفسه واضحاً ومُصدِّقاً، بحيث لا  
 يحتاج إلى براهين تثبت وجوده أو تؤكد قيمته، أو تدل عليه..!!

وهذا بالطبع، لا يُضائل من قيمة المعرفة.. إنما يرفع إلى مستواها،  
قيمة العمل والمثابرة ..

فلتكن هذه الوصايا تذكيراً، أكثر منها تبصيراً..  
ولتكن حافزاً، أكثر منها شرحاً وتفسيراً ..

\* \* \*

وأنت .. وأنا .. قد تواتبنا القدرة على الأخذ بهذه الوصايا جميعاً.  
وقد نقدر على بعضها، ونعجز عن بعض..  
ومهما يكن الأمر، فلا ينبغي أن نياس، أو نتخذ من العجز مرفأً  
يرسو عليه زورق حياتنا ..

بل علينا أن نحاول دوماً؛ ونحقق منها ومن الخير ما نستطيع  
وسنجد كمالنا في أولئك الذين يستطيعون في أن يحققوها جميعاً،  
ويضيفوا إليها جديداً.. كما سنجد في هذا القدر المشترك من  
محاولاتنا معاً، ومثابرتنا دائماً ..

\* \* \*

والآن.. نمضي سوياً، نحن الذين نلتقى حول هذه الكلمات  
والوصايا

وليحاول كل منا أن يسبق... فهذا هو السباق الشريف حقاً..  
النبيل حقاً... العادل حقاً !!

وعلى الذين يصلون أولاً؛ ويبلغون الغاية مبكرين. أن يلوحوا لنا  
من هناك بأيديهم. لنفرح بإخوة لنا سبقونا.. وليشد عزمنا الأمل في أننا  
بهم لاحقون !!

خالد محمد خالد

www.alkottob.com



## الوصية الأولى

أهلت عَصُورَ الحَبِّ  
فودّع الكَراهِيَةَ ..



www.alkottob.com

منذ متى، والبشرية ترتعد تحت وطأة صقيع الكراهية، وزمهيرير  
البغضاء..؟؟

منذ عهد بعيد مُمعني في البعد.. منذ ساق أحدُ ابني آدم أخاه إلى  
المجزر لأن الله رفض قربانه، وتقبل قربان أخيه، ومنذ أحس ذلك  
القاتل، الوحشة الضارية التي خلفها له غياب أخيه، وراح يُقلِّب كفيه  
الآثمين ويحترّ حشرات قلبه الخواء الذي فقد الإلف، ففقد أشهى  
مباهج الحياة..!!

منذ ذلك الحين البعيد، والإنسان يصطلي بالكراهية، ويبحث عن  
الحب؛ ليبت في نفسه السكينة، وفي حياته الأمن.  
والبحث عن "الحب" بحث عن "القانون" الذي يُنظم سير الحياة  
ويضمن بقاءها ..

وعبر الزمان المديد، كان الرسل والهداة، والمصلحون ينطلقون من  
ضمير البشرية ليرتادوا المجهول، وليبحثوا لها عن قانون حياتها،  
وتضرّجت الأرض بدماء الكثيرين منهم .

اغتالّتهم الكراهية التي شحذت كل قواها؛ لتفتك بهم قبل أن  
يفتكوا بها..

وكان كلما ارتفع للحب راية، خفقت للُبُغْض رايات وتحرك ميراث الغابة في جَيْشانِ صاحب، أحقاباً تَلَوَّ أحقاب، زاعماً للناس أن الحب ضعفُ إنساني، وزاعماً لهم كذلك أن البقاء للأشدَّ ساعداً، الأحدُّ ناباً، الأكثر استعاراً بنيران الحقد، والأنايية، والاستعلاء!! وتعثرت البشرية وخاضت في مستنقعات الكراهية التي كادت تبتلعها .. وما أكثر العصور التي عجزت البشرية فيها عن الإحصاء ضحاياها، إذ كان الضحايا يفوقون كل قدرة على الإحصاء...!! وما أكثر المناسبات التي جعلتها البغضاء "مواسم حصاد" تحصد فيها الناس! وكل ما يصطنع الناس لأنفسهم من علاقات التفاهم والإخاء ..

\* \* \*

يبد أن الإنسانية تحمل في طواياها إمكانات صعودها.. تلك الإمكانات التي طالما قاومت البغضاء ورواسب الغاب، وطالما خاضت ضد الكراهية معارك كُتِب لها من الفوز، بقدر ما بُذِل فيها من الجهد.. كان الحب الذي فطر الله الإنسانية عليه، يعمل في أناةٍ ومثابرة. وكان يتخذ من كل شيء سبباً يدعّمه، ويُرْكِيه فحين يرتبط الإنسان بالأرض في قديم الزمان، يتخذ الحب من ذلك سبيلاً لينمى نفسه داخل ضمير الإنسان وروحه. وحين يرتبط بالأسرة، يبرز الحب كقانون للعلاقة بين الرجل وزوجته، وبين الزوجين وبنيهما .. وينشر الحب وجوده، ويفسح رحابه. كاسحاً أمامه البغضاء التي كانت تتطوح تحت ضرباته في مثل جنون العواصف وعربدتها ..

وبعد محاولات وجهود، اكتشف الإنسان أن "المحبة" هى القانون  
الحقيقى لوجوده، بل للوجود كله ..!!  
فالجاذبية، عماد الكون - السماوات، والأرضون ... الشمس،  
والكواكب، والنجوم، والأفلاك جميعاً.. كلها شادَ الله بناءها، وشدَّ  
أزرها بالتآلف والجاذبية؛ حتى الأضداد يجعلها تعمل معاً، وكأنها  
شئ واحد، لا أضداد مختلفة..!!  
تبيّن الإنسان أن الحب قوام طبيعته، وجوهر طبيئته، وأنه خلق  
ليُحِب، ويُحَبُّ.. ليألف ويؤلف ..  
تبين له أن "ميراث الغابة" الذى يحضه على الكراهية ليس النارَ  
التي ستحرق مصيره.. بل النار التي ستنضج مواهبه، وتصهر سبيكة  
الحب، وتُنقى جوهره..  
وهكذا، رفع مراسيّه، وأنزل سفنه فى البحار الدافئة.. ومضى يُنمى  
ثراءه الروحى، وتُباعد بينه وبين ميراث الغابة ..  
والأرض التي روتها البغضاء بدماء ضحاياها، زرَعها الإنسان  
وروداً، وأزاهير ..!!  
والأكداس الهائلة، والجبال العالية من جثث الشهداء، رفعت  
الإنسان عن الوحل، وأبعدته من المستنقع..  
وكل تجربة مريرة خاضتها البشرية واكتوت فيها بنار الكراهية،  
تحولت إلى خبرة غنية، وإلى سطر مُضىءٍ، فى وثيقة خالدة تعلن سيادة  
الحب، واقتراب ملكوته..!!  
وعرفت البشرية الحق وفتحت بصرها عليه، حين عرفت أن الحب  
يعنى بالنسبة لها، ما تعنيه الحياة ذاتها، وحين أدركت أنه لا الوطن،

ولا اللون، ولا الدّم، ولا أى شىء فى الدنيا من حقه أن يدفع بالمحبة  
إلى الوراء ..!!

ووقف واحد من الأفاذاذ - هو محبى الدين بن عربى - يعبر عن هذه  
الحقيقة، فيقول :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى      إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى  
وقد صار قلبى قابلاً كل صورة      فمرعى لغزلان، ودير لرهبان  
وبيت لأوثان وكعبة طائف      وألواح توراة ومصحف قرآن  
أدين بدين الحب أنى توجّهت      ركائبه.. فالحب دينى وإيمانى

\* \* \*

منذ عهد بعيد وملكوت الحب يقترب.. ولكنه فى عصرنا هذا يسرع  
فى اقترابه.

ونحن - أبناء هذا العصر السعيد - سنشهد ليل الكراهية يقترب من  
فجره - أقول: سنشهد..؟ لا، بل نحن نشهد فعلاً، ولا تحسبن هذا  
إغراقاً فى التفاؤل: بل هو إدراك لحقيقة تسطع سطوع الشمس..

لا تدع فتن السياسة الدولية تخدعك عن رؤية هذه الحقيقة، فكل ما  
تراه من اضطراب وقلق - إنما هو أشبه الأشياء ببقايا طعام حامض،  
تُقلبه أمعاء سليمة وتلفظه معدة قوية ..!!

إن الحياة الإنسانية تتقدم ولا تتأخر.. تزدهر، ولا تدهوى..  
وحين نبلو أمرها. نجد أن جوهر ازدهارها - هو الحب ..  
تأمل تلك الظواهر العابرة فى حياتك، وفى حياة الناس؛ تجد الحب  
جوهر كل ازدهار ..

إذا ذهب للقاء عروس ترجوها؛ ارتديت أبهى ثيابك ..

إذا زارك صديق تحبه؛ تحول بيتك إلى عرس ومهرجان ..

إذا أحببت عملك؛ تفانيت في أدائه وإتقانه ..

إذا أحببت زوجتك؛ تمنيت أن تنجب منها بنين وحفدة..

إذا أحببت قانوناً؛ احترمته ..

إذا أحببت أستاذاً؛ أحببت المادة التي يدرسها..

إذا أحببت وطنك؛ لم تفكر في خيانتته..

إذا أحببت الحياة؛ لم تفكر في الانسحاب منها ..

وكلنا تمر بنا تلك اللحظات التي تتفجر فيها أنفسنا محبة وشوقاً،  
وصداقة ووداً، فإذا بأفئدتنا تهفو نحو كل خير، وتفيض توقيراً  
واحتراماً للحياة، وتبدو الدنيا بهيجة، والناس طيبين، والمستقبل  
مغرداً ..!!

لحظات الحُبور هذه، لا تكاد تُواتينا صافيةً مُشعةً إلا حين تحيا  
نفوسنا في حالة حب ظافر..

ونحن نظلم الحياة حين نحسبها فقيرة أو بخيلة بهذا الحُبور، فالحق  
أنها تُعطى منه بغير حساب لمن يهيب نفسه لتقبُّله، وذلك بأن يطهر قلبه  
من البغض، ويحيا في وفاق مع نفسه ومع الناس..

إن الإحساس بالجمال، وبالمحبة، وبالحياة قريب من كل فؤاد  
ذكي، وكل قلب سليم..

والقلوب الذكية السليمة، هي التي تدرك روح الخير وتحياه. وروح  
الخير في عصرنا هذا يحظى بأوفى قدر من الوضوح وأوفى قدر من  
الاتحاد مع روح العصر ذاته..

فمن مزايا عصرنا هذا أنه عَرَفَ - وبوسائله هو - كل القيم

الصحيحة، واللازمة لاستمرار الازدهار البشرى..  
 وعلى رأس هذه القيم جميعاً، وَضَع الحب، وأَعْلَى رايته.. الحب  
 الخالص القوى النامي، الذى يقول للكراهية وداعاً..!!  
 وكل مظاهر الكراهية المتبدية فى عصرنا هذا، تُمثل - لا غير - آلام  
 المَخاض الذى يُبشر بالوليد ويُرهِصُ به..  
 وهذا الوليد، هو عالم لا بُغض فيه أبداً، ولا حقد فيه أبداً..  
 وأنت - يا من تتلو هذه السطور الآن - واحد من الجيل الذى  
 اصطنعته الأقدار السعيدة ليقوم باستقبال ذلك الوليد المُهل؛ حيث  
 الحب الوثيق، والإخاء العميم. فودِّع الكراهية، وخذ مكانك فى  
 صفوف المحبين الوعاء..

أنت واحد من الجيل الذى وُضعت على كاهله تبعات الميلاد.  
 ميلاد الإنسانية التى طال شوق الله إليها.. والتى من أجلها أرسل  
 الرسل المباركين. وأيدَّ جهاد الرواد والمُصلحين..  
 الإنسانية التى تختفى الكراهية من حياتها، والتى تقود المحبة  
 العظمى سلوكها وتهدى خطاها..!!  
 الإنسانية التى يقول كل فرد فيها لأخيه: يا أنا !! فاعمل من أجل  
 أن يقترب هذا الميلاد .

ومهما يكن عملك فى هذا السبيل، فلن يكون عملاً ضائعاً. لأنك  
 لست وحدك.. بل هناك ملايين من الناس مثلك مبعوثون فى الأرض.  
 يحملون الشَّعْل المضيئة. وتموج أفئدتهم بمشاعر الود الخالص..  
 يتكلمون لغة الحب ويسرون تحت رايته..

وإنهم على بُعد ما بينهم من مسافات، ليعيشون معاً وإن لم يتم بين



أشخاصهم لقاء.. وإن مشيئتهم الواحدة، لتجعل من شتاتهم أمة  
واحدة. وهؤلاء - قبل سواهم - هم لبناتُ العلم الواحد الذي ننتظره..  
لستَ وحدك إذن، فانهض وخذ مكانك بين رفاقك العظام!  
لا تُسى الظن بعصرك، ولا تحسب - إذا كنت محباً - أنك "عصفور  
بين غربان" أو أنك "صالح في ثمود" !!!  
فالحق أن "غربان" البشر تنقرض.. وسيطوى الغد القريب كل  
بقاياها النائية، وستُخلَصُ الحديقة للعصافير المغردة..!!  
إن الحياة تفتح ذراعيها الحائيتين لتضم إلى صدرها الودود، كل  
محب ودود..

وإنها لتنادي الطيبين الودعاء: - إلى يا بُدُور الغد المجيد.. إلى يا  
طلّاع البشرية المقبلة..!!  
وإنها لتدخر لهم كل طيباتهم، وكل مقاعد الشرف لديها.  
لم تعد الحياة الإنسانية تأبه إلا للبطولات التي تنطلق من الخير  
وتعمل وفق أغراضه .

ولقد أنزلت عن عرش التاريخ جميع الذين نسجوا مجدهم من  
التسلط والاستعلاء وبث الكراهية.. ورفعت مكانهم ذوى القلوب  
الكبيرة الذين بسطوا أيديهم بالخير، وبشروا بين الناس بالحب .  
لقد أنزلت "جنكيزخان"، ورفعت "بوذا" ..  
طوت أعلام "بونابارت"، ونشرت أعلام "باستير" ..  
دمرت صولجان "هتلر"، وقدّست مغزل "غاندى"  
لم يعد التاريخ يقف عند ذوى البأس والسطوة.. بل مع ذوى المروءة  
والحق !!

لم تعد تبهره بطولات الفتح العسكرى ولا السياسى .. بل تبهره  
بطولات الفتح الإنسانى الذى يجمع الشّتات، ويقاوم التمزّق والكراهة..  
لم يعد ينثر الورود على الذين يضعون أنفسهم فوق الناس.. بل على  
الذين يبذلون جهودهم لخدمة الناس...!  
فإذا بذلتَ من قلبك للآخرين حُبًّا، وصفاءً؛ فلن يكون قلبك موضع  
السخرية، ولا الجحود .  
فانهض، وخذ مكانك بين رفاقك العظام ..

\* \* \*

إن معايير الحياة الإنسانية قد استقامت، ونجتْ من قُوى الزيف  
والمناورة .. وإن المحبين الطيبين، لن يُسلموا بعد اليوم للنكران، ولا  
للضياع .

من يزرع البغضاء؛ يحصد القطيعة..

ومن يزرع المحبة؛ يَجْنُ الحياة..

لقد استقام الميزان تماماً، ولن يَعْتَوِرَ كفتيه اضطراب..

إذا أحببت الناس صادقاً؛ فلن يكرهوك أبداً ..

صحيح أنهم قد يفعلون ذلك بعض الوقت، لكنهم لن يلبثوا إلا قليلاً

ثم يعودون إليك تسبقهم قلوبهم..

ذلك أن الناس الذين يكرهون إنساناً يحبهم، إنما يدفعهم لهذا

إحساسهم بأنه متميز عليهم، فهو يحب، وهم يبغضون..

وهو يسمو وهم يهبطون .. ومن ثم يتخذون نفس الموقف الذى

اتخذته بعض الأمم من أنبيائها حين قالوا : ﴿أخرجوهم من قريبتكم

إنهم أناس يتطهرون﴾ !!..

لكن التفوق الأخلاقي يَحْمِي نفسه وَيَفْرَضُ كلمته.. من أجل هذا سرعان ما يكشف المبغضون خُطْلَ موقفهم، فيعودون مهرولين إلى من أحبهم ونفروا منه.. ويجدون فيه واحةً يلتمسون عندها السلام والراحة، وتضع عنهم أوزارهم التي أنقضتْ منهم الظهور .. ذلك أن أولى مزايا الحب. قدرته على منح الآخرين الثقة به والطمأنية إليه ..

وهكذا، لا يذهب حبك للناس سُدىً ..  
فانهض، وخذ مكانك بين رفاقك العظام ..

\* \* \*

ولكن، كيف تبدأ؛ لكي تكون مُحِبًّا..؟؟  
طالما قالت لك الوصايا الأخلاقية: أَحِبْ جارك.. أَحِبْ إخوانك.. أَحِبْ والديك.. أَحِبْ عملك..  
وكل هذا حق ..

بيد أنني أريد أن أسبق كل هذه الوصايا بوصية أخرى، هي: "أحب نفسك" ..!!

أجل.. أحب نفسك.. أحبها دوماً وأحبها كثيراً.. فما لم يجمعك بها حب عظيم، فلن تكون أبداً محبباً، ولن تكون قط محبوباً..!!  
قد يبدو هذا الحديث غريباً، إذ طالما ظننا أن العكس هو الصحيح.. حتى لقد وضع أدبنا الشعبي، وأمثالنا السائرة حكمة تقول "من أحب نفسه كرهه رفاقه" ..  
لكن الحق، أن من أحب نفسه أحب رفاقه وأحبه رفاقه؛ .. لأن الذى يُعْطَى، هو الذى يملك.. والعاجز عن حب نفسه، هو عن حب غيره أشد

عجزاً ..!!

وصدق أفلاطون حين قال: "إن أشق أنواع الصدقات كافة، صداقة المرء لنفسه" ..!

لقد مردنا على اعتبار حب النفس، والأناية وجهين لشيء واحد، وهذا ظلم مبين ..

فالحب .. ما الحب ..؟؟

إنه نشاط بهيج تُعبر به الروح عن نفسها ..

إنه رغباتنا في حالة تشوفٍ وحُبور..

فكيف يتحقق خارجاً عنها..؟

كيف نمنحه غيرنا . ونمنعه أنفسنا ..؟!

إننا نحب الأشياء التي نرغبها، ونجد في التعلق بها مُعانةً ممتعة، وفي الفوز بها سعادة فائقة..

فنحن إذًا . نحب بأنفسنا .. ونحيا لأنفسنا ..

فإذا قيل لنا، أحبوا أنفسكم. كان هذا، الاستهلال الرشيد، لكل

حب رشيد.

وحبك لنفسك مختلف عن الأناية اختلافاً كبيراً ..

فالأناية ليست حباً أبداً. إنما هي تعصب، وانطواء، وغرور.. بينما

يتضمن دائماً التسامح، والإيثار، والفهم..

أحب نفسك؛ لتستطيع أن تحب الآخرين.

أحب نفسك، ولا تمقتها: فالذين يمقتون أنفسهم يتحولون إلى

طلقات مقذوفة في حرب أهلية ..!!

وما ظنك سائلي، وكيف أحب نفسي؟

فأنت تحبها فعلاً، ولست بدعوتى إياك إلى حبها، أدعوك إلى إيجاد ما ليس موجوداً.. إنما أدعوك إلى تنمية هذا الحب الذى برأ الله عليه كل حى.. وأدعوك إلى ترشيده ورعايته؛ كما يرعى الأب طفله النضر.. وكما يتعهد البستاني الحاذق براعم الحديقة وورودها..!!  
وأول التزاماتك تجاه حبك نفسك، أن تعرف قيمتك فأنت - أيها الصديق - إنسان طيب..

مهما تكن عثراتك وأخطاؤك، فأنت إنسان طيب، ولو لم يكن فيك إلا رغبتك الملحة فى أن تكون أفضل مما أنت. لكفالك هذا..  
إن عوامل الشر الكامنة فى أنفسنا، والمنتشرة حولنا، تطارد نوازع الخير، وتتحداهما فى إصرار ومع هذا، ففى أعماقنا دائماً نزوع الخير، وحنين إلى الكمال، ومحاولات تكبو مرة، وتنهض مرات..  
فلا تكن باخِعاً نفسك على عثرتها..

ناقش نفسك فى أخطائها.. لكن لا تمتهنها..  
الوِزَامَها عن السوء.. لكن لا تضطهدها..  
إن أكثر الذين يُضْمَرُونَ للناس العداوة والحقد، إنما يصدرون عن خراب داخلى فى أنفسهم التى كرهوها واضطهدوها..!  
فإذا أردت أن يجد الناس منك السلام والصدقة، فابدأ بأن تمنح نفسك سلاماً وصدقة. فإن العالم لن يتلقى منك إلا ما تعكسه عليه حياتك الباطنة، وسلوكك النفسى.

أما إذا سلبت نفسك راحتها، فقد يُرشحك ذلك لمنصب كبير بين الأشقياء الذين يسلبون الدنيا راحتها..!!

إن نفسك جديرة بحبك وباحترامك.. لأنها ليست ذرة تائهة فى

خَواء.. بل هي حلقة ثمنية في سلسلة الكيان الإنساني.. هي عضلة  
عاملة من عضلات القلب البشري..!!

وإذا وقفت أمام المرأة لتصلح هندامك؛ فاذاً أنك تبصر في  
المرأة كائناً سحرياً تمثل فيه كل خصائص النوع الإنساني بجميع بؤسه  
وجميع عظمته..!!

إن الحب العظيم الذي كان يعمر قلب "محمد"، و"المسيح" عليهما  
السلام.. وقلب "بوذا" وغاندى، موجود فيك ومعك.. وإنك لتملك هذا  
الرصيد. بيد أنك تجهل وسائل استثماره. ولا تبذل إرادتك جهداً  
كافياً لبعثه ونشوره.

إن أساتذة الحب ورواده الذين عاشوا، أو يعيشون فوق ظهر  
كوكبنا، لم يفعلوا أكثر من أن تعهدوا زهرته التي غرسها الله يمينه  
في قلب كل إنسان.

تعهدوها بالسقى، وبالرعاية حتى أعطت خبثها، وعطرها، وشذاها.  
ولقد بدأوا جميعاً بأن أحبوا أنفسهم..

أجل - لقد أحبوا أنفسهم.. الأنبياء، والهداة، والرواد، وكل عظيم  
صادق العظمة من بنى الإنسان..

بدأوا بحب أنفسهم، حتى إذا حدثوا الناس فيما بعد عن الحب  
ودعوهم إليه، سارت كلماتهم كالمقادير..!

والدليل على أن حبهم لأنفسهم كان كبيراً - أنهم نذبوها للأعمال  
الجليلة، وللجهاد الكبير من أجل خير الإنسانية كلها واختاروا لها  
أشق وأعظم رسالات الحياة.. وجندوها تجنيداً كاملاً لقضية الحق،  
والخير، والرحمة، والحب..

وهذا، يمنحنا المفهوم الصحيح لحب النفس.  
فحبك نَفْسَك. لا يعنى الانطواء عليها وتدليلها..  
لا يعنى تركها ترعى مع الهمل. وتختار من الواجبات والتبعات  
نفاياتها الهزيلة..

لا .. ليس ذلك كذلك أبداً..

وإنما حب النفس إذا كان صادقاً ورشيداً؛ يدعو صاحبه إلى إشار  
الواجبات الثقيلة، والتبعات الرفيعة، والتحليق عالياً فى آفاق العظمة.  
فليس يحب نفسه حباً سوياً، من يجعل غاية سعيه، أن يبحث عن  
حِنِطَةٍ لِرِحَاهُ!!

إنما هو من يزداد بوجوده رصيد الحياة، ومن يترك دنيا الناس يوم  
يتركها، وقد مهرها بتوقيعه، وضمخ هواها بشذاه..!  
فحبك نفسك إذاً يعنى:

\* أن تعيش معها فى وفاق تام..

\* وأن تجعلها دائماً موضع حفاوتك وتقديرك..

\* وأن تَنْدُبَهَا لأكثر مهام الحياة جلالاً وسُمواً.. فإذا أحببت

نفسك؛ أَلْفَيْتَهَا تنطلق وراء الحب فى كل مكان..

وبغير عناء، تذوب الثلوج، وتنمى الحدود التى تفصلك عن  
الناس. وتعشُر حياتك على شعارها الذى سيكون: "جميع الناس  
إخوتى" ..!!

وأنت لا بُدَّ تعلم أن الاحتفاظ بروح السلام والود بينك وبين الناس  
مهمة صعبة.. لكن حبك الذى أنضجته داخل نفسك، قادر على أن يجعل  
الصعب سهلاً، وولاؤك الوثيق للحب، كضرورة إنسانية، وقيمة علياً -

سيجعلك فى كل نزاع، خير ابنى آدم، وأزكاهما نفساً.  
وسوف تلتقى فى الحياة بناس تعبق منهم كل عطور التفوق  
الأخلاقى.. وهؤلاء لن تتكلف حبهم، لأن سموهم ينادى إليهم كل  
نظير. وهم لا يحملوننا على حبهم فحسب، بل وعلى حب البشرية التى  
أنجبتهم..!

وستلتقى بآخرين، تعرف منهم وتنكر.. لا يشجعون على حبهم بل ولا  
على الاقتراب منهم. فيهم الكثير من أخلاق المستنقع..!!  
وهؤلاء فرصة لك فاغتنمها.. إنهم هم الذين سيكشفون عن جوهرك،  
ويفتحون عينيك على المستوى الذى بلغته نفسك فى حبها وتفوقها..  
إنك لا تأتى أمراً غير عادى، حين تحب من يستحق أن تعطيه حبك..  
بيد أن العظمة الوافية هى أن تمنح نفس الحب للذين يعجزون عن  
حبك.. بل للذين يكافئونك على الحب بالعداوة..!!

\* \* \*

وإذا كان الحب فطرة، فالتعبير عنه فن عظيم..  
وعلاقاتك بالناس، لا يكفى أن تقوم على المجاملة. بل ينبغى أن  
تضرب جذورها فى الأعماق.. وأن تقوم على الحب الكامل الوثيق..  
ولكى تدرك هذا عليك أن تبذل جهوداً دائبة ليزداد ثراؤك الروحى من:

\* التسامح ..

\* التفوق ..

\* التفاؤل ..

فهذه الثلاث تشكل أعصاب المحبة، وشرائينها.

\* \* \*



فلا بُدُّ من التسامح لكي تكون مُجِبًّا.. ذلك أن الناس صنوف شتى..  
ولكل منهم شَرِّبُهُ، وطبيعته، ومُنَاخُهُ.. ومهما يذهب أحدنا صاعداً،  
فإن له زَلَّاتٍ، وخطايا.. ومهما يذهب أحدنا هابطاً، فإن له حسنات،  
ومزايا..!!

فضع في حسابك دوماً أنك تتعامل مع الجزء الأفضل من الناس ولا  
تكن قَوِيَّ الذاكرة تُجاهَ إساءاتهم، وكن قَوِيًّا تلقاء مزاياهم وخيرهم..!!  
لن تجد أبداً، الإنسان الذي ما ساء قط.. الإنسان الذي تصفو  
مُشارِبِهِ.. لكنك واجد دائماً الإنسان الذي يَنْطَوِي على خير، ولو  
ضئيل..!!

فتعرَّف إلى هذا الخير في كل من تَلَقَى، وتعامل مع هذا الخير  
كثيراً كان أو قليلاً. وحاول أن تُنمِّيَه بتسامحك وتساميك وِحدَبِكَ..  
أجل، ضع عينك على اللمعة البيضاء في كل فرد تلقاه، ولا تتبع  
عورات الناس، ولا تركز على ضعفهم فإن بك - مهما تكن قوة نفسك -  
ضعفًا لا تحب أن يركز الآخرون عليه..!!  
إن الفرد الكامل، لا وجود له بين صفوف الناس.

ولكن الكمال كامن في قدر مشترك من جهودهم جميعاً.. وإذا  
ساءك من أحدهم أمر، سيسرك منه أمور، فَوَطِّدْ عزمك على التسامح  
والفهم؛ تظفر بقلوبهم، وتعاونهم على ما تَرجو لهم من ارتقاء.. وحين  
تدفع السيئة بالحسنة، والتجهم بالتهلل، والأذى بالصفح، فلن يكون لك  
على ظهر الأرض خصوم؛ لأن روحك الطيبة، ستجذبهم طائعين أو  
مكرهين. وسيمسُّهم منها شعاع مقدس فإذا هم وُدَّعَاء مُحِبُّون..!! أهنأك  
بين أرياح الدنيا كلها ومكاسبها جميعاً، ربح أوفى من هذا أو مكسب

أغنى وأبقى..؟؟

لقد فعل ذلك "إبراهام لنكولن" مع خصوم له ذوى كيدٍ مُزعجٍ..  
ولما عُوْتِبَ فى تسامحه معهم وقيل له: لقد كان الإجهاز عليهم  
عملاً نقيضه العدالة. أجاب قائلاً:

- وهل فعلتُ غير هذا..؟؟ لقد أجهزتُ عليهم كأعداء، حين  
حولتهم إلى أصدقاء..!!

ربما تقول: ومع هذا، فقد انتهت حياة "لنكولن" برصاصة حاقدة!!  
وأجيبك: نعم، لقد ذهب "لنكولن" ضحيةً بُغض أهوج وكذلك ذهب  
"غاندى"، ومن قبلهما "سقراط"، وكثيرون من طرازهم الرفيع..!!  
بيد أن ذلك لا يعنى أن حياتهم كانت باطلة، وأن سلوكهم المتسامح  
الودود كان ساذجاً، وإنما يعنى أن البشرية لا تزال بحاجة إلى المزيد  
منهم.. المزيد من مبادئهم وسلوكهم..

أجل.. لكأن قدرنا الإنسانى يستحِثنا، ويقول لنا: انظروا.. إنَّ  
أساتذة الصفح والحب يسقطون صرعى الضغينة.. إن أكثر الناس بُعداً  
عن مَظِنَّة القتل غيلة، يذهبون غيلة..!! إن البغضاء يُجَنُّ جنونها كلما  
أبصرت رائداً جليلاً يقود الناس لتحديها، وكلما أحست اقتراب  
نهايتها.. فضاغفوا جهودكم، وتقدموا صوب الوحش الكريه.. إنه  
يترنح، فأجمعوا أمركم ولا تدعوه يُفَلِتُ..!!

هذا ما ينبغى أن نفسر به مصرع كل محب يذهب شهيد حبه، وكل  
متسامح يذهب شهيد تسامحه..

على أن هؤلاء - فى التحليل النهائى لهم - لم يذهبوا ضحايا  
تسامحهم وحبهم، بقدر ما ذهبوا ضحايا لمكاييد السياسة ومؤامرتها

الخبیثة..!

أما التسامح والحب اللذان تواصوا بهما، فقد أكسباهم قلوب أفضل الناس حين كانوا بينهم.. وتقديسهم جميعاً يوم حلوا عنهم..!!

\* \* \*

لا بُدُّ من التفوق؛ لكي تكون محباً.. ذلك أن الحب بذل لا ينتظر العِوض، وتتويج لحياة صَفَتْ جناحَيْها، فطارت محلقة وراء الخير الأسمى..

فالمحب، أبعد الناس عن الحقد، وأبعدهم من الغضب..

والإنسان المتفوق لا يحقد. ولا يطول غضبه إذا غضب..

ذلك أن الحقد عزاء يقدمه الفاشلون إلي أنفسهم العاجزة.. كل امرئ حقوقه، ليس في حقيقته سوى أنقاض حَيٍّ، وبقايا جُثمان..!! ولن

تجد إنساناً مطمئناً إلى نفسه، يحقد على الآخزين مهما يسبقوه..

والحقد حماقة كبرى - لأن الحاقد إنما يضاعف متاعه وشقاؤه.

ويُصَلِّي رُوحه المقهورة سعيماً..!!

فلا تجعل الحاقدين يظفروا بك، ويضمّوا عضواً جديداً إلى

عصابتهم الفانية..!!

وذلك لا يتطلب منك أن تتجنب الحقد وحسب.. بل ويقتضيك ألا

تقاوم الحقد بحقد مثله..

مهما تُوجّه إليك سهام الحق.. تجنب أن تصير حقوقاً..

قاومها بشباتك، وبفضائل نفسك، وبحيلتك الواسعة الكريمة. هناك

حكمة صادقة تقول: "لا تقا تل التّنين، حتى لا تصير تيناً مثله" ..!!

فلا تحقد على الحقود، حتى لا تصير حقوداً مثله..

احمد الله إذ جعلك عالي النفس، كبير القلب.. وإذا أجاتك  
أحقاد الآخرين إلى مقاومتها؛ فقاومها بأسلوبك أنت. لا بأساليبهم..  
وتصرف تصرف عظيم لا تحمله أخلاق الصغار على أن يصير صغيراً..!!  
ولكى يسلس لك هذا الموقف النبيل دوماً.. تعود ألا تغضب، وألا  
يلبث غضبك إلا قليلاً..

أنا أعلم أن الغضب في طبيعتنا، ولا بد للناس أن يغضبوا أحياناً..  
ومن العسير ألا يغضب أبداً.. لكن من اليسير ألا يغضب كثيراً.. ومن  
اليسير كذلك ألا يكون غضباً أرعن مهتاجاً..  
إذا غلبك الغضب؛ فاغضب "غضباً مفكراً" ..

والغضب المفكر، لا ينقذ من أعصاب خائرة، ولا من ذمة جائرة..  
بل يكون انفعالاً. فيه حمية، لكن له منطق.. فيه انتقاص، لكن معه كايح..  
وفيه ذكاء كريم يدور حول الأزمة ويفسرها.. وسرعان ما ينتهي الغضب  
ويذوب..

وصف رسول الله ﷺ الإنسان المتفوق المؤمن بأنه "بطئ الغضب،  
سريع الفئ" ..

وإنه لو صف حاذق، بقدر ما هو صادق..!!  
فإذا كان لا بد من أن يغضب، فينبغي ألا يجي الغضب حتى نستنفد  
كل محاولات دفعه.. ثم علينا ألا نسمح له بطول المكث وخط الرحال.  
تفوق على حوافز الغضب، بفلسفة الصفح..

وأطفئ صراخ الاستفزاز، ببرد الثقة..  
وحاول أن تعرف كثيراً، وعندئذ ستغفر كثيراً..!!  
كان الفضيل بن عياض "الصوفي الكبير إذا اعتدى عليه بالسباب

مُعتد، رفع كفيه مبتلاً وقال:

- "اللهم إن كان كاذباً فيما رمانى به، فاغفر له.. وإن كان صادقاً،  
فاغفر لى" ..!!

سُلوک رائع من قديس..! أليس كذلك ..؟؟

ومع هذا، فليس القديسون وحدهم هم الذين يتخذون هذا الموقف  
الحكيم، بل ويتخذهُ كل فطنٍ أريبٍ يَضِنُّ على الغضبِ بذرة من أعصابه  
وسكينة نفسه..

كان "دزرائيلى" إذاً أثاره أحد وأغضبه، كتب اسمه فى ورقة، ثم  
تأملها جيداً، ثم مزَّقها، فبينتهى غضبه من فوره.. وبهذه العادة الصالحة  
استنقذ راحة نفسه من براثن الغضبِ ولفحات الغيظ..!!

وأنت قادر بالمثابرة والتعود أن تتفوق على الغضب ليظل قلبك  
سليماً ودوداً..

لا تجعل غضبك "نابحاً" بل اجعله وديعاً، وعابراً.. وكن سريع الفئ  
والرضا..

\* \* \*

ولا بُدُّ لك من الحماسة والتفاؤل، لكى تكون محبباً فالحماسة،  
والتفاؤل عَصَبُ كل حبٍ سديد، كما أنهما مثوبة الحب يهديها إلى  
دُويه..

إن المحب يرى الحياة ببصرته الثاقبة، ويضفى عليها صفاء روحه  
ما ينحى عنها الكآبة.. وهو لا يفعل هذا بخيال فنان. بل بِحُنْكَةٍ مُجْرَبٍ  
وفطرة إنسان، لأن الحب لا يصير منهجاً للنفس وللسلوك إلا بعد أن  
يجتاز الإنسان، تجارب كُثْرًا يواجه خلالها من أسرار الحياة، وبواطن

الأمر ما يجعل التشاؤم خرافة ولغوًا .  
فتفاءلُ كثيرًا، وتفاءلُ دائمًا إذا أردت أن تحتفظ لحبك بدرجة  
الحرارة الملائمة واللازمة، ورعْرعُ روحك دائمًا بالحماسة والتطلع  
والشوق..

إن التفاؤل والحب يُسقيانِ بِماء واحد.. كلاهما فُرح، وتَهْلُل وثقة  
وطمأنينة..!!

والحق أن ليس ثمة في واقع حياتنا وتطورنا ما يُغري بالتشاؤم،  
ويصدُّ عن التفاؤل..

ولقد كان المتفائلون في كل العصور على الصواب.. فها نحن أولاءِ  
نرى البشرية لا تزداد إلا تقدُّمًا، وإلا صعودًا..

فتفاءلُ، وتهلّلُ ولا تحصرُ تفاؤلك داخل حدود..  
إذا قيل لك: إن الأرض ستكفُّ عن دورانها حول الشمس فقل: لا بد

أنها ستغير قانون حركتها، ولكنها لن تبيد..!!  
إذا قيل لك: إن الشمس ستختفى غدًا.. فقل: لا بد أن شمسًا أخرى

أكبر منها وأبهى، ستأخذ مكانها..!!  
إذا رأيت حربًا عالمية تجعل ما حولك حصيدًا. فقل: إن البشرية

تتقايأ آخر أقدار أمعائها..!!  
لا تظنُّ هذا الحديث شعراً، وإن بدا في مثل خيال الشعراء..

فالتفاؤل مهما نسرف فيه ينطوي دائماً على صدق تاريخي، ويستمد  
صدقًا كبيراً من معالم تطورنا الإنساني..

فنحن منذ وجودنا على الأرض نُبصر قُوى الحياة باقية في مكانها  
مُثابرة على أداء دورها..

وكل هذه القوى تُجدد باستمرار حيويتها، وتُعوّض ما يسقط منها  
عبر السفر الطويل، وتدفع بالحياة الإنسانية إلى غرض لا يبدو أن من  
سماته التدهور أو الفناء..

تفاعل دائماً في حماسة وثقة..

تفاعل لنفسك، ولمن حولك، وللناس جميعاً..

والآن، وقد رُضت نفسك على حب نفسك.. وعلى حب غيرك. فوسّع  
دائرة حبك حتى تسع الناس جميعاً.

لا تخف أن ينفد أو يغيض، فالحب يزيد بالإنفاق ويموت بالشح  
والإمساك!!

تخطّ بحبك جميع التخوم والحدود..

ابسط ذارعيك، وعانق البشر جميعاً ولا تلوّ زمام قلبك إلا عن قوَى  
الشر التي تعوق تقدم الإنسان، وتهدد أمن الحياة وتُنكس ميزان  
العدالة في الأرض.

وفيما وراء ذلك لا تدع اختلاف الدين، ولا اختلاف الجنس،  
واللون، ولا اختلاف المذهب والرأى. يُضائل من حبك المفيض، أو  
يصده عن السبيل.

أحبب البشرية الخيرة كلها. وقل: "هذه أسرتي"..

ولكن اذكر أنك لن تستطيع أن تُجيد حب العالم، إلا بعد أن تجيد  
حُب الوطن... فحبك الآخرين البعيدين منك يبدأ تدريبه هنا، مع  
عشيرتك وأهلك..

وكما قلتُ لك. إنك لن تحب الناس، حتى تحب نفسك.. أقول لك -

لنفس الأسباب - إنك لن تحب العالم، حتى تحب الوطن..!!

وأيضاً، لن تحب وطنك حباً خالصاً - إلا إذا أحببت العالم حباً خالصاً..

ذلك أنه إذا كانت الأرض التي تعيش فوقها، ويضم ثراها رُفات آبائك، وتستقبل من بعدك أبناءك وحفدتك..

إذا كانت هذه الأرض ووطنك، فالعالم هو وطن هذا الوطن..!!

وإذا كان الوطن "أباك" فالعالم "جدك" ..!!

فإذا كنت "ابن" ووطنك .. فأنت "حفيد" عالمك..!!

والحب الإنساني الذي يقف عند حدود الوطن، لا يكون في حقيقته حباً - بل تعصباً.

والحب الذي يتخطى الوطن إلى العالم، لا يكون حباً، بل جُحوداً، وإفلاساً..!

وأنت بحاجة دائمة إلى التركيز بقدرٍ أوفى على حب الوطن، لا تعصباً، ولكن رعاية لضرورة الحب ذاتها؛ لأن متاعب الحياة - عادة -

لا تجيء من الناس البعيدين منا بقدر ما تجيء من الذين تجمعنا وإياهم روابط العيش والعشرة الدائنية، حيث تولد العلاقات المتبادلة

والمباشرة كثيراً مما يسر ويسوء. فما لم نكن مزودين بالفهم، ومفعمين بالحب، فإن الميزان سيضطرب في أيدينا..

لا تسمح لشيءٍ ما، أن يكدر صفو حبك وولائك لوطنك.. ولقومك.. وخذ القدوة من أصحابها العظماء..

هذا هو "محمد" رسول الله عليه الصلاة والسلام، يضطهده سادة قومه، ويخرجونه من وطنه، فيودعه في أسى المحب.. ويستقبل مكة قبيل

الرحيل قائلاً:



"والله إنك لأحبُّ البلادِ إلى نفسي.. ولولا أن قومك أخرجوني منك، ما خَرَجْتُ أبداً" ..

بالروعة الولاة.. لكأنه يعتذر إليها، عن رحيله عنها..

وهذا، هو "المسيح"، يريدُه إلى الموت، الذين جاء ليحررهم من الأغلال، فيستغفر لهم، ويبتهل إلى ربه قائلاً:  
"اغفر لهم؛ لأنهم لا يعلمون ما يفعلون" ..

أرأيتم جلال الحب..؟؟

وستجد صفوفًا طويلة من ذوى العظمة الصادقة أعطوا أوطانهم كل شيء، وربما أصابهم من قومهم أذى وضرر، فما أبغضوا الوطن ولا حقدوا على الأهل؛ ذلك لأن الضرر مهما يشتد، عارضٌ سيزول..  
والأذى الذى يُزجيه بغض الناس لا ينبغي أن يحمل وزره الوطن..!!  
والحب الكبير الذى يُعدّ نفسه ليسبح فى المحيطات الواسعة، يجب أن يتفوق أولاً فى سباحة الأنهار..!!

والقلب الودود الذى يصافح وُدّه البشرية بأسرها، لا بُدَّ أن يكون قد استقر ولاؤه لعشيرته الأقربين..

فليكن حبك صادقاً وعميقاً، وليكن ميزانه مستقيماً..

كن ابن وطنك، وأخا العالم.. ولا تقل ماذا يجنى العالم من حبنى، وأنا فرد وحيد..؟ فكما قلتُ لك أولاً: لست وحيداً.. فهناك فى كل مكان من كوكبنا تتكاثر وتنمو الأعداد الهائلة من رفاقك المحبين.

ومنك، ومنهم، تتكون إرادة الخير المشتركة التى تتحول إلى قدرٍ إنسانى - يُريد.. فيكون له ما يُريد..!!

على أن شحذَ إحساسك بالإخاء العالمى، وبالصدقة البشرية،

ضرورى لك، لتكون إنساناً..

والحب للروح، كالهواء للرئة.. كلما تلقت الرئة هواءً نقيًا، قادمًا من المساحات الواسعة الطلقة، ازدادت به حيوية وقوة.

فدع روحك تتنشق حب المساحات الواسعة..!!

ودع وجدانك يمتلئ بالصدقة لكل شىء طيب، لا يبين الناس وحدهم.. بل فى كون الله الرحيب..

كان القديس "فرانس" يقول: "أخى الطير" !!

وإنه بهذا ليُشارف حقيقة الوجود..

فالكون كله صديقنا - الأرض.. الشمس.. القمر.. النجوم.. الناس..

النبات.. التلال.. الأنهار.. الزهور..

الكون كله.. العالم كله.. معنا، ولنا..!!

وإن روحك إذا كانت طيبة، لن تشبع حبًا، فدعها تُصافح كل شىء..

فكل شىء لها صديق..!!

دعها تحب كل ما وجد لكى يُحب ويؤلف..!!

دعها تُعزز صداقاتها، وتنم موداتها !!

\* \* \*

إن الحب يتقدم لينشئ عالمًا جديدًا.. عالمًا من خلقنا، ومن

روحنا.. فتقدم معه..

لا تَقُلْ: كيف السبيل، فأنت هو السبيل..

وليس عليك إلا أن تكون مُحبًا..!!



## الوصية الثانية

لا تدع الخوف يفكر لك  
أو يُشِرُّ عليك..  
وَطَهَّرْ مِنْهُ إِرَادَتَكَ..  
وَعِشْ قَوِيًّا..



www.alkottob.com

لا أعرف عدوًّا للإنسان، خرج عليه من غابات الزمن وملا حياته  
 بالشقوة والألم مثل الخوف..!!  
 إنه عدو ضارٍ مقوَّض، وبيلٌ..  
 ولسوف يحدثوننا عن مزايا الخوف، باعتباره المِهماز الذى دفع  
 عجلة التقدم الإنساني..  
 فخوف البشرية من المرض، شحذَ اهتمامها بالصحة وخوفها من  
 الجهل، حفزها إلى الاهتمام بالعلم.. وخوفها الحرب، حشد صفوفها  
 فى جبهة السلام - إلى آخر هذه المقابلات..  
 بيد أن هذه الأمثال لن نتخذنا عن حقيقة الخوف، ولن نكون من  
 السذاجة بحيث نرضى عنه أو نتخذ منه صديقاً!..  
 فهذا النوع من الخوف - خوف الجهل، والمرض، والحرب ليس هو  
 الخوف الذى نُفردُ للحديث عنه هذه الصفحات.  
 فمخاوف الجماعة الإنسانية المتمثلة فى آفات حياتها، وحواجز  
 تقدمها كجماعة، هى بالفعل مخاوف نافعة وحافزة.  
 فالإحساس بها، إحساس جماعى.. ومقاومتها، مقاومة جماعية..  
 والجهود الإنسانية كلها فى تعبئةٍ مستمرة لمناهضتها وتلافيها، ومن ثمَّ

فهي لا تنال من طمأنينتنا، لأن الإجماع الإنساني على مجاوزتها،  
يحمل إلينا الإيناس، ويمنحنا حاسة التهكم عليها..!  
أما المخاوف الماحقة، فهي تلك تتناب الأفراد، وتنهش أفئدتهم..  
تلك التي يحملون وُحْدَهُمْ لَأَوعَاءَهَا وَمَقَارِعَهَا، وتجعل منهم مأساة  
محزنة!

صحيح أن في طبيعتها الإنسانية قدرًا من الحاجة إلى الخوف نُحاذِر  
به الأخطار ونتقيها، ونتوخى به سلامة خطانا وأمن مصيرنا..  
يَبْدُ أَنْ هذه الحاجة يجب أن تُلبى بحكمة، وعلى أضييق نطاق؛ حتى  
لا تتحول إلى آفة مُهلكة..

إن في جُسومنا مقادير من الدم نحيا بها ونعمل؛ لأن الدم هو  
الحياة..

فإذا ذهب أحدنا، وأراد أن يمنح جسمه عافية أكثر، فيصب في  
أوردته دمًا يزيد عن حاجة جسمه؛ فإنه يعرض نفسه للدمار.. وبالدم  
الذي هو سبب الحياة، يفقد الحياة..!!

فما تحتاجه نفسك من الحذر، يجب ألا يجاوز حده.. وعليك أن  
تفرق دائماً بين الحذر النافع الذي تقتضيه غرائزنا السوية، والخوف  
المقلق الذي تفرزه الأوهام وتعقيدات العيش.  
فحرر نفسك من الخوف، وكن قويا..

إن سفير دولة قوية ذات مهابة وقوة، يبدو في أى بلد غريب يذهب  
إليه، سيداً مهيباً؛ لأنه يحمل معه أينما سار، هيبة بلاده وجلالها..  
وأنت - كائنًا ما تكون - تمثل نوعك الإنساني كله.. ومعك القدر  
الذي تريده - من قوة هذا النوع وغلبته..

بل أنت بوصفك إنساناً تمثل "الله" فى هذا الكوكب.. وبوصفك فرداً، فإن معك جزءاً من النفوذ الذى يقتضيه هذا الاستخلاف، وهذا التمثيل..!!

ومهما تكن ظروفك ومقدرتك؛ فإن فى مكنتك أن تتفوق على كل عوامل الخوف.

فى استطاعتك أن تكون قيصراً من غير طغيان قيصر.. وأن تكون هرقلًا، من غير غرور هرقل..!!

فى استطاعتك أن تواجه الأمواج مبسوط الذراعين، وأن تبتسم للهول نفسه، فإذا هو هباء..!!

إن طبيعتك مزودة بقدر كافٍ من الطمأنينة والثقة، فإذا تركته للبوار - فإنك بهذا تبدد رصيذاً ثميناً..

حرك قوى الثقة والأمن فى نفسك، واستعملها بحنكة ودأب. تتخلص من مخاوفك أولاً فأولاً..

ولكن، ماذا.. ولماذا نخاف؟؟

سأجاوز بك مرحلة الطفولة، على الرغم من أنها البئر التى تختبئ فيها معظم جذور مخاوفنا.

سنجاوزها، لأن هذا الكتاب ليس بحثاً فى علم النفس.. وسنبداً من حيث تبدأ مسؤوليتنا عن أنفسنا.. حين يبدأ إحساسنا بالمسئولية، ورغبتنا فى أن نباشر حقوق نضعنا..

إنك شاب يافع، تحمل داخل إهابك نفساً، أنت عنها راضٍ، وبها واثقٌ..

وكثيراً، ما تتبدى لنفسك كما لو كنت "دولة ذات سيادة" .. لها

رايتها، ولها حدودها، ولها نفوذها واستقلالها..!!  
لا بأس أن تكون كذلك.. بل أنت كذلك فعلاً..  
ومن هذا التشبيه، بل من هذا الواقع دعنا نبحث القضية..  
إنك كدولة ذات سيادة، ترفض العدوان.. ترفض التطفل على  
أسرارك ومسلكك.. ترفض أى انتقاص من حقوقك وتذود بمنتهى  
التصميم عن حرمة ضميرك وروحك..!!  
وأنت - كدولة ذات سيادة - لا تعيش فى كوكب وحدك بل تعيش  
على نفس الكوكب الذى تعيش فوقه دول كثيرة ذات سيادة.. ألفان  
وخمسمائة مليون دولة، بعدد أفراد البشر الذين سيعتبر كل منهم نفسه  
دولة ذات سيادة، مثلك تماماً..!!  
والدول، لكنى تزدهر، وتطمئن، يجب أن تكون موفورة القوى،  
ويجب - قبلاً - أن تكون على علاقات سليمة وعادلة وطيبة مع الدول  
الأخرى..  
علاقاتك بالناس، وبالبيئة، هى مركز الحساسية فى طمأنينتك أو  
فزعك.. فى سلامتك أو خذلانك..  
وعلى الرغم من أن طفولتك تتحكم فىك إلى حد ما..  
وعلى الرغم من أن ميراثك من آباءك وأجدادك يقودك إلى حد ما،  
حتى ليكاد يجعل منك - كما قال قائل - "عربة كبيرة يركبها جميع  
أسلافك..!"  
على الرغم من هذا كله، فإن مسؤولية حياتك منوطة بك وحدك..  
ومن ثم، فإن علاقاتك بالناس، مسؤوليتك وحدك، وتبعتك وحدك..  
والآن: اذكر هذا جيداً..



إن أعظم ما يوفر لك الأمن والطمأنينة، أن يربطك بالآخرين علاقات  
سديدة مستقيمة..

والآخرون هم - الناس.. الأسرة.. الشارع.. المعهد.. الأصدقاء..  
الغرباء.. المجتمع.. الحكومة.. القانون.. العرف..

كل فُزع يغشانا، يبدأ انطلاقه من هنا - من الخلل الذى يصيب  
علاقاتنا بغيرنا..

وقانون هذه العلاقات يمضى فى دقة عجيبة، تجعل القصاص ضربة  
لازم..!!

إن القاتل الذى قتل خفيةً، أو السارق الذى سرق خفيةً، يعيشان فى  
فزع وقلق..

لماذا.. مع أن أحداً من الناس لم يرهما، وبالتالي فإنهما بمنجاة من  
قصاص القانون والناس..؟!

السبب أن علاقاتهم النفسية بالجماعة، قد اضطربت حين أخلوا  
بالعلاقات الظاهرة القائمة على العرف والقانون..

واقترف العدوان - سرّاً كان أم علانية - يعنى أن خطأ من خطوط  
الاتصال بالناس وبالمجتمع. قد عطل أو قطع.. ويعنى فى الوقت، أنك  
فقدت مركزاً من مراكز حراستك..

ومن الناس من يتمادى فى الإخلال بعلاقاته الاجتماعية والإنسانية،  
وهو بهذا يتلف جميع الخطوط التى تصله بالناس، وتحمل إليه ثقتهم  
وحُبهم وحدبهم. وفجأة تحتوشه الوحدة والفزع ويقول: إني خائف..!!

أجل - أنت خائف - لا لأن الناس يخوفونك. ولا لأن المجتمع  
يفزعك.. بل لأنك أقصيت عن نفسك كل أسباب الأمن والسكنية، حين

أقصيتها عن الجماعة التي تعيش معها بإتلافك كل وسائل الاتصال بها  
والتلقى عنها..!

فاجعل علاقاتك دائماً في أحسن تقويم..  
اجعلها عادلة، مستقيمة، وقم بكل واجباتها والتزامتها..  
لا تنظر أن تعتدي؛ ثم تعيش مطمئناً..  
إن للحياة قدرها الذي لا يغفل عن القصاص، ولا يُحايى..  
واعلم أن كل عدوان تأتيه، فإنما هو هاتف ينادى إليك الخوف  
والفزع.

ولست أعنى بالعدوان هنا - العدوان المحسوس وحده - بل  
والعدوان النفسى قبلاً..  
فمجرد إضمارك السوء والشر عدوان.. وهو بالتالى إتلاف  
لعلاقاتك وانحراف بها..

فطهر نفسك من كل انتواء ردى.. وطعم روحك بنوايا الخير،  
والقصد، والحق. تجد الشجاعة مُثابرة على صحبتك.. والأمن سريع  
الخطى إليك.. وتجد روح الشجاعة والثقة تخفُ دائماً إلى نجدتك..!!  
ما أصدق الحكمة التي قالها "كونفشيوس":

"حياتي، هي صلاتي، والذي يعيش عيشة صالحه لا يخاف شيئاً  
على الإطلاق"!!

صحيح أن ثمة ناساً كثيرين يسيرون على هذا الصراط ثم لا يسلمون  
من آفات الحياة..!

أجل.. ولكن آفات الحياة هذه، لن تقدر أبداً على إخافتهم  
وتفزيعهم.. إنها لن تزيد عن كونها مضايقات.. مجرد مضايقات..

أفيسوؤك أن تضع الحياة فى طريقك بعض مضايقاتها..؟ لقد وضعت هذه المضايقات فى طريق جميع الذين اصطفتهم للقيادة، والعظمة، فلا تَضيقُ بها أبداً..

\* \* \*

إذا صححت علاقاتك بما حولك، فالمخاوف كُلُّهنَّ أمانٌ..!!  
وما دُمْتَ تحيا بين الناس حياة عادية عادلة، فسيكون فى قلبك من الشجاعة والأمن ما يمنحك غبطة لا يقدر على شرائها مِلءُ الأرض ذهاباً..

ولكن، هل سَيُنهى ذلك مخاوفك..؟؟

أجل. سَيُنهى مخاوفك من الناس..

ولكن تبدأ مخاوف أخرى..

الخوف من الغيب..!!

خوفك من المستقبل المحجوب..

خوفك من الله

خوفك من الموت..

وهنا، كما هناك.. لا سبيل للتحرر من هذا الخوف إلا بنفس

الوسيلة السالفة.. تصحيح علاقاتك وإضاءةها بنور الفهم والخير..

لقد صار الناس يتسلَّون بأصوات الرعد والبرق، وبمنظر الشهب

التي تخترم الفضاء.. بعد كانوا قديماً يَهْلَعُونَ منها ويفزعون..

فلماذا..؟؟

لأنهم بالأمس كانوا يجهلون حقيقتها، وكانت علاقاتهم بها

وبالكون كله، تستمد من هذا الجهل سلوكها، فيربطونها بغضب الآلهة،

ويرونها سوط عذاب..!

فلما فهموا، وعرفوا، واستقامت علاقاتهم بها على جادة المعرفة  
والفهم، ذهب الخوف منها إلى منقاه البعيد..

- صحح علاقتك بالغيب فإنك لن تفرع منه أبداً..

- وصحح علاقتك بالمستقبل. بأن تعمل له في سداد..

إن المستقبل ليس غريباً عنك. إنه امتداد لحاضرك.. فإذا وقّرتَ  
لعملك اليوم أقصى أسباب السلامة والإجادة؛ فإن عملك غداً - وهو ما  
نسميه المستقبل - سيكون سليماً جيداً..

صحيح أن دروب الغيب كثيراً ما تَفْجَأُ الناس بما لم يكن لهم على  
بال.

لكن لا ريب في أن أكثر هذه المفاجآت؛ تجيء ثمرة أعمال لنا  
سابقة. وأخطاء سالفة..

وقليل من هذه المفاجآت، يكون كأنما صنُع في غيبة منا، ولكن أي  
جدوى في ترقب مثل هذا الغيب، وحملان هموم أمور لم تقع، وقد لا  
تجى أبداً..؟!

فَدَعِ التَّوَقُّعَ لِلْحَوَادِثِ إِنَّهُ لِلْحَيِّ مِنْ قَبْلِ الْمَمَاتِ مَمَاتٌ

\* \* \*

وصحح علاقتك بالله. بأن تحاول الاقتراب من فهم الله..

إننا نخاف الله: لأنه توعّدنا بعذابه.. عجباً!! أولم يَعِدْنَا كذلك

برحمته التي وسعت كل شيء..؟؟

إن أباك قد يخوفك. بل قد يقسو عليك لصالحك: فهل لا تعرف من

أبيك إلا أنه الرجل الذي يهشُّ عليك بعصاه..؟!

أبدأ .. فعلاقتك بأبيك تقوم أولاً، ودائماً على أنه أبوك الحانى..  
الذى يطعمك ويكسوك.. ويشترى مسراًتك بالدين.. وتتلخص مباهج  
الحياة عنده فى هذه الكلمة: "ابنى" ..!!  
فإذا خوَّفنا الله، ولوَّح لنا بالعقاب، فليس معناه أنه المنتقم ثم لا

شىء

كلا .. إنه الرحمن الرحيم، السلام، الغفور، الودود..

إنه القدوس الذى لا تحركه الغرائز الغاضبة..

إنه الكمال المطلق

فأقم علاقتك به سبحانه على الحب؛ والرجاء والهدى..!

\* \* \*

وصحح علاقتك بالموت، بأن تدرك حقيقته، وبأن تستعد له بحياة

طيبة..

فما الموت إلا انتقال إلى أفضل وأهنأ.. ولكن الأساطير التى

أحاطت به، ووضعته داخل إطار من الشوك والأذى، والهول.. هى

المسئولة عن تشويبه وتحريف حقيقته..

لا أذكر أين قرأت لحكيم عبارة تقول:

"حين كنت جنيئاً فى الرحم، كنت ناعم البال هادئ.. حتى إذا

حانت ساعة رحيلك عنه إلى الدنيا. قاومت الخروج حتى استعانوا

عليك بالقابلة "المولدة" .. وأخيراً نزلت صارخاً - مُضمناً صُراخك

هذا، احتجاجك على الذين أخرجوك من جنتك..

"لكن حين كبرت، اكتشفت جمال الحياة وتعلقت بها..

"وذات يوم آخر، استدعى إلى الرحيل عنها، وأنت تجزع سلفاً من

هذا الرحيل الذى تسميه الموت..

"ألا تتخذ من تجربتك الأولى عِظَةً ودرساً..؟"

"ألم تُغادر - من قبل - حياة الرُّحْمِ إلى حياة أجمل منها..؟"

فلماذا لا تكون بما نسميه موتاً، ذاهباً إلى حياة أكثر جمالاً..؟!!!

إنها صورة عذبة. وإذا كان فيها خيال، ففيها حقيقة.. فالموت لا يمكن أن يكون شيئاً كريهاً ما دام جميع الناس يعبرون جسره، ويكرعون كأسه..!

ليس فى الموت سوى ألم الفراق.. فليأخذ مكانه بين مضايقات الحياة.. ولتُنحَ عن نفسك كل خوف من الموت والرحيل والآن دعنى أحدثك عن خوف آخر، مُعَوَّق، ووييل ذلك هو: الخوف من المسؤولية..

وهنا أقدم إليك هذه الحكمة الجليلة!

"افعل ما تتهيئه، فإذا موت الخوف مُحَقَّق" ..!!!

أجل: فى نطاق مسؤولياتك - صغيرها، وكبيرها.. افعل ما تتهيئه ولا تخف

إن الشجاعة تحمى نفسها من الزلل المحطّم؛ لأن الشجاعة تنطوى على الحكمة.. وهذا فارق بينها وبين التهور، عليك أن تلاحظه.. الشجاعة - اقتحام تقوده الحكمة..

أما التهور، فصيحة، يدفعها النزق!

باشراً مسؤولياتك بشجاعة.. ومارسها فى حدود طاقتك وظروفك، فليس من حَقك أن تحمل مسؤولية لا تُطيقها، وتعرض نفسك لبلاء لا تطيقه..

ضَعُ عَيْنِكَ دَائِمًا عَلَى إمكانياتك في غير تهيب، وأيضًا في غير تهور. ووازن بين ما تريد أن تعمل، وما تستطيع أن تعمل..  
لا تُلْقُ نَفْسَكَ مِنْ حَالِقٍ، رَغْبَةً فِي أَنْ يُقَالَ "يَاللَبْطَل" !!..  
ولا تُعَامِلِ الحَيَاةَ كَمَا لَوْ كَانَتْ "سِرًّا" - قفزة هنا وقفزة هناك.. بل  
فُكِّرْ بِذِكَاكَ، وَقَاوِمِ بِذِكَاكَ - وَقَاتِلِ - إِذَا اضْطُرِرْتَ لِلْقِتَالِ -  
بِذِكَاكَ..!!!

وَأُولَى سِمَاتِ الذِّكَاةِ هُنَا - أَلَا تُسْتَدْرِجُ إِلَى مَسْئُولِيَةِ تَقْوَمِ بَيْنَ  
طَاقَتِكَ وَبَيْنَهَا اسْتِحَالَةٌ لَا تَمْلِكُ تَذْلِيلَهَا..  
كَانَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: "لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ.  
قِيلَ: وَكَيْفَ يَذِلُّ نَفْسَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟؟"  
"قَالَ: أَنْ يُعْرَضَ نَفْسَهُ لِمَا لَا يُطِيقُ مِنَ الْعَمَلِ، فَيُعْرَضُ لَهُ مَا لَا يُطِيقُ  
مِنَ الْبَلَاءِ" ..!!!

فَفِي ضَوْءِ جَمِيعِ الظُّرُوفِ، اخْتَرِ مَسْئُولِيَاكَ، وَإِذَا اخْتَرْتَهَا، فَقِمِ  
بِكُلِّ التَّزَامَاتِهَا جَاعِلًا شَعَارَكَ حِكْمَةً - فَيَكْتُورُ هِيَجُو : -  
"إِنِّي أُرَى؛ لَا أَكْثَرَ .. وَأَوْمِنَ؛ لَا أَقَلَّ .. أَمَا الْعَوَاقِبُ فَشَيْءٌ لَا  
يَدْخُلُ فِي حِسَابِي" ..!!

لَا تَخَفِ الْمَسْئُولِيَةَ أَبَدًا، فَذَلِكَ الْخَوْفُ شَرُّ أَنْوَاعِ الْمَخَافِ،  
وَأَكْثَرُهَا هَدْمًا لِرُوحِ التَّقَدُّمِ.  
وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْمَسْئُولِيَةُ تَتَعَلَّقُ بِنَفْسِكَ، أَمْ بِالنَّاسِ بِأُمُورٍ عَادِيَةٍ، أَمْ  
بِجَلَائِلِ الْأَعْمَالِ..

أُبْذِلُ فِيهَا - مَهْمَا يَكُنْ طَرَاظُهَا - كُلَّ رُوحِكَ وَجَهْدِكَ.. فَعِظْمَةُ الرُّوحِ  
لَا تَنْتَظِرُ. وَهِيَ فِي الْأَعْمَالِ الضَّئِيلَةِ. مِثْلَهَا فِي الْأَعْمَالِ الْجَلِيلَةِ،

شامخة بأسلوبها، وبصدقها..

ثُبتت نفسك بالقدوة العظمى التي ضربها للناس خيارهم.. انظر: هذا "رسول الله" يحتضن مسؤوليته في رُسوخ أشم.. ويضع لتهديدات قومه ومناوراتهم حداً فاصلاً وراذعاً من تصميمه.. ويترك للدنيا أبلغ الدروس في إيثار الحق، وتحمل المسؤولية..

"والله. لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، ما تركتُ هذا الأمر حتى يقضيه الله، أو أهلك دونه..!!"

وهذا، أخوه "المسيح" .. يبصر أكثرية قومه، تتحول إلى خرافٍ ضالة - تحترم الباطل؛ وتمتهن الحق، وتكذب على الله..

ويحمل مسؤولية الموقف كله.. وحيثما كان يسير، كانت جثث الهداة قائمة على الصليبان التي أقامها لهم الباطل - تلفحها الشمس والرمال، وتهوى عليها الطيور الجارحة الجائعة. فلا يفت في عضده المشهد، ولا تستجيب في نفسه ذرة واحدة إلى دواعي التقهقر..!!!  
ويمضي في ولاءٍ فذٌ لمسئوليته وعمله..

لا تقل هذا محمد؛ وهذا المسيح..؛ فمن يبلغ شأوهما..!؟

فهناك أعداد هائلة من الذين لم يجبنوا عن مسؤولياتهم ولم يهربوا منها أو يفرطوا فيها..

هذا "ابن تيمية" يناهض في أيامه الذين يحكمون الناس بالظلم، والذين يملأون عقول الناس بالخرافة، فيؤذون ويضطهدون، ويحاط بكل صنوف الأذى، فلا يلقي مسؤولياته من يمينه. بل يتهمكم على مضطهديه فيقول:

"ماذا يصنع العداء بي؟ إن حبسى خلوة، وقتلى شهادة ونفسي



سياحة. فماذا يصنع الأعداء بي..!!؟

وهذه سيدة، ترى صرعى العلة يتهاوون كالعهن.. وتلتمع أمام بصيرتها بادرة أمل في كشف الدواء الناجع. فتحمل من فورها مسؤولية هذه البادرة كما لو كانت رسالة تُلقى إليها، ووحياً يُنزل عليها، فتتأبر، وتضئ، وتعيش وزوجها في "بدروم" منزل ويحقيق بتجربتها العلمية فشل تلو فشل. ولكنها تتأبر، وتحمل مسؤولية لم يكلفها بها سوى ضميرها الحى الباسل، ويذوى عودها تحت وطأة الفقر، والسهر، والمحاولة.. حتى دقت الساعة التي قال الله فيها لها:

- الآن خذي ثوابك بغير حساب - وتفتحت أمامها مغاليق السر، ووضعت يدها على "الراديوم" وأخذت مكانها في الخالدين، ورفضت في إصرار رهباني أن تُسخر كشفها وجهدا لسماسرة الشقاء حين حاولوا أن تأذن لهم بتحويل الخير الذي كشفته إلى أداة قتال، تقتل وتبيد..

أتريد أن تعرف أخت البشرية هذه..؟؟

إنها "مدام كورى"!!!

\* \* \*

وكان هنا، في وطننا هذا.. رجل معه من المال والجاه ما لا يجد معه من وقته فراغاً - أى فراغ - يملؤه بعمل جاد. فضلاً عن أن يملأ بتضحيات تزهو على معظم ما عرف البشر من تضحيات..!!  
ألقى أمته تُسامُ الخسْفُ والذُلُّ، فخلع جاهه، وجعله لها دثاراً.. وجمع ماله، وجعله لقضيتها فدية.. وترك القصر، ودخل السجن.. ثم قضى حياته محروماً من كل راحة.. بعيداً من كل مرفأ.. حتى مات

غريباً لا يجد ثمن الدواء!!  
 آية شجاعة منقطعة النظير، حمل بها "محمد فريد" مسؤولياته..  
 هذا الرجل الذي لا تكاد عظمتته تترك إلى جوارها مكاناً لمنافس  
 أو مُزاحم..

هذه القدوة السامقة جداً.. الطاهرة جداً!!!

\* \* \*

لا تخش شيئاً ما، إذا دعتك مسؤولياتك. وناداك واجبك. وسواء  
 كانت هذه المسؤوليات، عملاً سياسياً، أو اجتماعياً، أو عملياً.. عملاً  
 فى مستوى القمة، أو فى مستوى السفح.. وسواء كنت وزيراً، أو كاتب  
 "أرشيف" !!

لا تُلْقِ مسؤوليتك على الأرض، خوفاً من حق لك قد يضيع أو منفعة  
 ترجوها، أو صداقة تحرص عليها..

لا تخش رؤساءك فى العمل، إذا اقتضت مسؤوليتك العادلة أن  
 تقول لهم: لا ..

فليس فى الحياة أمتع ولا أبهج من "لا" هذه. عندما يُدفع بها باطل،  
 وعندما يتوجه بها الأدنى إلى الأعلى.. والأضعف إلى الأقوى!!!

إن هذه المواقف قبل سواها، هى التى تؤكد عظمة الحياة وقوتها.  
 حين مات الإمام "محمد عبده" توجه ناظر الخاصة الخديوية، إلى  
 شيخ الأزهر يومئذ - وكان الشيخ "الشربيني" طالباً منه ألا يشترك هو  
 والعلماء فى جنازة "محمد عبده" الذى كان على خلاف حاد مع  
 الخديوى ..

ألقي مبعوث الخديوى بهذه الرغبة السامية إلى الشيخ فهز الشيخ

رأسه وسكت، واصطبر حتى شرب ضيفه قهوته ثم التفت إلى الشيوخ الذين حوله، وقال: هيا بنا - يا مشايخ فقد حان موعد الجنازة..!! وفهق ناظر الخاصة من مفاجأة لم يكن يتوَّعها، وقال لشيخ الأزهر: ألم أبلغك رغبة أفندينا..؟

فانتفض الشيخ العظيم قائماً، ولوحَ بيدٍ عزيزة وقال:

"إن الله وحده هو أفندينا" ..!!

بالله ما أروع هذا، وأمجده ..!!!

اجعل كلمة الشيخ "الشربيني" شعاراً لك. واذكرها إذا دعتك

مسئولياتك الأمانة لمخالفة رئيس لك تحاذره وتخشاه..

ولا تُتخَّ للأوهام أن تظفر من طمأنينتك وشجاعتك بطائل..

إن الوهم أكذب الظنون، فاربأ بعقلك أن يكون له عِشاً ومأوى..!!

\* \* \*

وبعد، فهناك قاعدة علمية تقول: ليست الشجاعة "إلغاء الخوف"

إنما هي "إخفاء الخوف" ..

وإخفاء الخوف هنا، لا يعنى كتم مظهره، بينما النفس من داخلٍ

تُزلزلُ زلزالها.. وإنما معناه التفوق على كل بواعث الخوف، وتفسيرها

التفسير الذى يكشف لنا حقيقتها، ويذهب بالكثير من توهم أخطارها.

ولست بحاجة إلى طبيب نفسى، ليزرع فى قلبك الشجاعة، إنما أنت

بحاجة إلى الفهم والإرادة.

الفهم الذى يفضح سلطان الخوف الكاذب..

والإرادة التى تضع بديلَ هذا السلطان الزائف، حكمة وقوة

وصلاية..

الفهم، والإرادة اللذان يجعلانك تبتسم وأنت تكافح.. واللذان يهييان بك أن: - "لا تخف.. فإذا غلبك الخوف، فامض في طريقك وأنت خائف"!!

فتقدم، وكن شجاعاً..

إن الرجل الشجاع لا يتلفت يميناً، ولا وراء...!!!

إنه لا يتسول العون، ولا يلتمس من غير نفسه شجاعةً نفسه..

إنه - مركز الدائرة - حيث يكون.

وهو بشجاعته لا يربح الحياة لنفسه وحدها بل ويُمكِّن الآخرين من

أن يربحوها..

فحيثما يُوجد القوى الشجاع، يشعر الذين حوله بالقوة والأمن. بل

إن شجاعته لتشق الطريق أمام الأجيال القادمة التي تندفع وراءه

مطمئنة، تقول لنفسها:

هذا الطريق - لا ريب - مستقيم، لأن رجلاً شجاعاً قد سار فيه..

فتقدم وكن شجاعاً..

إن الذين قادوا المصير الإنساني نحو مطالعته، كانت الشجاعة،

صفتهم المميزة..

الذين قاوموا جمود الحياة؛ وعجزها..

الذين شنوا حملاتهم الظافرة ضد كل تأخر، وانحطاط، وجَهالة..

الذين هدموا قلاع الطغيان؛ ورفعوا - عالياً - لواء الإنسان..

الذين أنزلوا سفينة التقدم الإنساني إلى البحر وهذبوا الأمواج

وشكّموا العواصف..

كل أولئك كانت ميزتهم الكبرى، أنهم تفوقوا على الخوف وعاشوا

شُجَاعًا.

لم يتركوا الخوف يفكر لهم، ولم يستشيروه في أمورهم، لأنهم علموا أن الخوف مستشار أحق - يُنَجِّب المَقْت والكرهية.. وفي ظل المَقْت والكرهية، لا تكون الشجاعة، بل التهور.. ولا تكون القوة، بل القسوة..

والقسوة والتهور يَلِدَان بدورهما مخاوف جديدة، وَعَجْزًا أكيدًا. لأن الذي يقسو على غيره، يقسو في نفس الوقت على نفسه، وتُصَاب إرادته باختلال عميق، وَعَطِبَ تام، ويرتدُّ آخر الأمر نهبًا لوساوس الهم والخوف..!!

\* \* \*

هناك حكمة تقول: "لأنَّ تكون فردًا في جماعة الأسود خير لك من أن تقود النعاج"!!

وهذا حق، لأنك، وأنت مجرد فرد بين أسود، تُواتيك الطمأنينة، وإذا كنت جبانًا غمرتكَ عَدْوَى الشجاعة..

وإذا فاجأتك الأخطار، وجدت من الأسود دُرُوعًا قوية.. فلنذكر تمامًا، أننا نقهر الخوف، كلما عشنا بين قوم لا يخافون..

من أجل ذلك، فإن الوصية التي تقول لك: لا تُخَف.. تقول لك في نفس الوقت: لا تُخِفُ !!

إذ بمقدار ما تُرْجِي للناس من أمن، تتلقى منهم الطمأنينة والأمن.. فلا تكن قط مصدر خوف لغيرك، إذا أردت أن يكون غيرك مصدر طمأنينة لك..!!!

إن التجربة الإنسانية تؤكد أن أكثر الناس خوفًا وجبنًا، هم

الجبارون الذين يملأون قلوب الناس رُعبًا.. هم القساة الذين  
يسلبون الناس أمنهم..!!

فلا تكن مصدر خوف لجارك.. ولا لزميلك.. ولا لمرءوسك..

لا تُخَفْ أولادك، إذا كنتَ أبًا..

ولا تُخَفْ مرءوسيك، إذا كنتَ رئيسًا..

ولا تُخَفْ شعبك، إذا كنتَ حاكمًا..

إن العدالة تُعاقب باعشى الرعب، بأن تردُّ الرعب إلى أفئدتهم

مُضَاعَفًا.. وبأن تحرمهم نعمة الحياة بين قوم أقوياء آمنين..!!

فابدل جهدك لكي تزيد من عدد الناعمين بالطمأنينة. واجعل الناس

يلتمسون في جوارك الدفء، وفي قلبك الحنان، وفي أيامك العافية..

لا تُخَفْ، إذا أردتَ ألا تخاف..

ولا تَخَفْ، إذا أردتَ أن تحيا..!!



## الوصية الثالثة

اسْبَحْ قَرِيبًا مِنَ الشَّاطِئِ  
وَارْتَكِبْ أَنْظَفَ الْأَخْطَاءِ،  
وَلَا تُقَايِضْ عَلَى الْفَضِيلَةِ بِشَيْءٍ...!!



www.alkottob.com



عندما قال "سقراط" !- "لا فضيلة بلا معرفة" .. كان يُسلط أذكى  
 الأضواء على قضية الفضيلة كلها..!!  
 فأنت، وأنا، والآخرون - إنما نهرب من الفضائل بدافع الجهل أكثر  
 مما نهرب بدافع العجز..  
 وجهلنا هنا، ليس جهلاً بنوع الفضيلة.. بل بقيمتها وحقيقتها..  
 فأكثرنا يحسب الفضيلة "كبت الهوى" ..!!  
 بينما حقيقتها أنها التعبير السديد عن أسْمى مَناعِمِ الهوى  
 ومباهجه..!!  
 أكثرنا يظن أنها تضحية بالسعادة..  
 بينما هي أوفى وسائل تحقيق السعادة..!!  
 ونحن - غالباً - بحاجة إلى وقت طويل، وإلى مُعاناة أطول؛ لكي  
 نعرف..  
 وسُعداءٌ هؤلاء الذين يأخذون التجربة الإنسانية من قريب،  
 وينتفعون بها، حين تقدم إليهم طبقاً شهياً. لم يمسهم لغوبُ إنضاجه،  
 ولم تلفحهم نار طُهوهِ..  
 سُعداءٌ، لو أنهم يتعظون..

فهل أنت واحد منهم، أو هل تحب أن تكون هذا الواحد..؟  
 هل تريد أن تنعم بهواك من غير أن تفقد نفسك في لُججه..؟  
 هل تريد أن تَكْرُعَ من لذات الحياة، وتنال من طيباتها حتى ترتوى  
 وتشبع..؟

هل تريد أن تكون حياتك موكباً مستمراً من المباهج والمسرات..؟  
 هل تريد أن تعيش "أبيقورياً" فى أبهج، وأرحب، وأعلى مستويات  
 "الأبيقورية" ..؟؟  
 وبعبارة واحدة:

هل تريد أن تعيش فى لذة لا تنتهى، وغبطة لا تبلى..؟؟  
 أسمعك تقول: نعم.. فأنا لن أجيء الحياة مرة أخرى .  
 ومن ثم أريد أن آخذها جميعاً: وأحيائها..!!  
 وأقول لك: حسن هذا .. وإذن فأليك السبيل:  
 لا تُقايضُ على الفضيلة بشىء..!!

\* \* \*

وسيكون من حَقك أن تسأل: أية فضيلة هذه التى لا أقايض عليها  
 بشىء..؟

الفضيلة، كما أراها.. أم كما يراها غيرى..؟؟  
 الفضيلة، كما يراها الناس اليوم، أم الفضيلة كما كان يراها آباءى  
 الأقدمون..؟؟

وأجيبك: فضائل عصرك..  
 وتعالى نبدأ الحديث معاً..  
 إن هذه الصفحات لا تنتظم بحثاً فلسفياً عن الوصايا التى تحملها،

ومن ثم، فلا نريد هنا أن نخوض في فلسفة الأخلاق.  
ولعله لا يكون من الخوض في فلسفتها، أن أقول لك: هناك: "قِيمٌ"،  
وهناك: "فضائل" ..

لنقل مثلاً، إن القيمة تشبه الشمس..  
والفضائل، تشبه الكواكب التي انقذت منها، والتي تدور في  
فلكها..

وكما أن حياتك "البيولوجية" تقوم صلتها المباشرة، بالأرض لا  
بالشمس..

كذلك، حياتك الأخلاقية، تقوم صلتها المباشرة، بالفضائل، لا  
بالقيم..

وكما أن الأرض، الواسطة بينك وبين الشمس بكل منافعها فكذلك  
الفضائل، هي الواسطة بينك وبين القيم بكل مزاياها.  
وكما أن الأرض في دورانها حول الشمس تُنشئ الليل والنهار،  
والظلمة والضوء، والصيف والشتاء، والربيع والخريف..

كذلك الفضائل، في دورانها حول القيم تعطي الحياة أوانا شتى من  
السلوك..

فكما أن حركة الأرض، تجعل الذي تعيشه الآن - ليلاً عند قوم  
آخرين.

فإن حركة الفضيلة كذلك - تجعل الخير الذي عندك اليوم، شراً  
عند آخرين..

فالقيم ثابتة.. أو هي في حركة حول نفسها، لتحتفظ عن طريق هذه  
الحركة بثباتها.

والفضائل متحركة، متغيرة، متطورة.

فالحق - مثلاً - قيمة. ولكن فضائل الأخذ به مختلفة - فبينما يرى قوم - أن فضيلة الحق في الميراث أن يكون للذكر مثل حظ الأنثيين .. يرى آخرون أن فضيلة الحق في الميراث أن يستوى الذكر والأنثى.. بينما يرى فريق ثالث، أن فضيلة هذا الحق - ألا ترث المرأة أبداً.. إن الحق، كقيمة، واحد لا يتغير..

ولكن طرائق الأخذ به وتطبيقه، وهو ما نسميه فضائل، يتغير بين عصر، وعصر، وناس، وناس.. وأحسبك الآن: قد عرفت ما أعنيه بقولي.. فضائل عصرك.. ذلك أن لكل عصر فضائله وتغيراته..!

وفي الأخلاق بالذات. يطول العصر - وينتظم عصوراً وعصوراً. لأن المراحل الأخلاقية تسير في أناة بعيدة المدى .. فحين نقول فضائل العصر، لا نعنى أن لكل خمسين عاماً مثلاً فضائل خاصة.. أو أن ثمت تعبيراً أخلاقياً شاملاً وعميماً يتم كل ثلاثين أو أربعين سنة.. كلا..

والتزام فضائل العصر، أمر ضروري لحياتك.. ذلك أن قوام الحياة الإنسانية شيثان، المعرفة؛ والخلق والفضيلة، هي التعبير النهائي عن مطالب العصر الخلقية.. فأنت مستقيم، ما دمت تأخذ بفضائل عصرك.. وأنت منحرف بقدر تجنبك هذه الفضائل.

وليس معنى هذا، أن الرواد الذين ينشقون على السائد المألوف. مبشرين بفضائل جديدة أو كاشفين للحياة سُبلاً جديدة..

أقول: ليس معنى هذا أن يكون هؤلاء أناساً غير أخلاقيين ومن ثم فيجب أن يُقْمَعُوا..

كلا.. فالرواد الصادقون جميعاً، رسل المستقبل إلى الناس.. وقد يُنادُونَ بأنماط من الحياة تبدو لجيلهم وعصرهم غير أخلاقية.. بينما هى فى حقيقتها أنماط أخلاقية جديدة تتخذ مكانها لتكوّن سلوك عصور مقبلة جديدة..

إنهم يكونون أكثر من غيرهم فطنة، وأنفذ بصيرة فيتلقون من السلف آخر حلقات تطوره الخُلُقِي. ويصلونها بسلسلة الاحتياجات الأخلاقية الحديثة البازغة.

كانت مشاركة الفتاة فى الحياة العامة فى مجتمعنا - رذيلة اجتماعية وأخلاقية.. بل كان ارتحالها إلى معاهد العلم ومدارسه كاشفة الوجهة مختلطة بالناس فى الطريق - رذيلة، وإثمًا..

فما الذى حول هذه الرذيلة إلى فضيلة، أصبح الناس يتسابقون إليها، ويسلمون بناتهم للعلم، وللوظائف، وللحياة فرحين مطمئنين؟ الذى حدث أن المجتمع تطور، وتطورت معه فضائله..

أنت كعضو فى الجماعة، ملزم بمسايرة هذا التطور، وملزم أيضاً باحترام الإجماع المحيط به.. فحين يُجمع أهل عصر على فضائل هذا العصر.. فعليك أن تحترم إجماعهم لأن هذا الإجماع يدل على أن الناس لا يزالون بحاجة إلى هذه الفضائل بذاتها، ويخبرنا أن موعد أنماط جديدة من السلوك، لم يحن بعد..

فإذا أحسست فى نفسك إرهاباً بذلك الجديد، فتقدم به كتفكير لا كسلوك، كموضوع تُعرضه للبحث، وتُدلى فيه بمنطقتك وحجتك..

وفيما وراء هذا ، فليمض سلوكك على الأنماط القائمة محترماً فضائل عصرك سائراً على هداها ..

هذه - فى رأى - أئمن وصية تتلقاها فى حياتك ..

والآن دعنى أعرف لك الفضيلة تعريفاً آخر ..

إن الفضائل هى الصفات النفسية للحياة ..

الحياة نفسها ، لها دستورها الأخلاقى الذى تسير عليه ..

الكون كله له أخلاقيات التى يلزم كل وحداته باحترامها ..

وأنت تشارك الحياة فى صفاتها النفسية حين تحيا حياة فاضلة .

والإنسان الذى يشارك الحياة فى صفاتها النفسية ، يحقق لنفسه

أقصى مباحج اللذة ، والغبطة ، والوجود ..!!

ستكون لذائذها ، هى اللذات حقاً ..

وستكون شهواته هى الشهوات النظيفة البناءة الدافعة إلى أعلى ..

من أجل هذا قلت لك : إذا أردت أن تظفر بكل نعيم ومتعة ، فلا

تقايض على الفضيلة بشىء ..

صحيح أن الفضيلة كَبُحٌ ، ولكنها كَبُحٌ للأهواء الفاسدة .

صحيح أنها تضحية باللذائذ .. ولكنها اللذائذ المسممة باللوم

والندم ..

إذا كنت تريد اللذة الزائفة التى تخلف لك الهم ، والسقم ، والزيف ؛

فأنا معك فى أن الفضيلة لن تحققها لك .. وستحرمك منها .

أما إذا كنت تريد اللذة الباقية .. تلك التى لا يَضِيرُكَ أن تعرفها

للناس عنك .. والتى تترك فى نفسك بهجة ، وفى ضميرك ابتهالاً .. والتى

تزيدك اتصالاً بالحياة ، واحتراماً لها ولنفسك .. فإن الفضيلة كفيلة

بتحقيق كل هذا لك..

ذات يوم سأل الرسول عليه السلام سائل عن البر والإثم: فأجابه الرسول:

"البر ما اطمأنت إليه النفس، ورَضِيَ عنه القلب.. والإثم ما حاك في صدرك، وخشيت أن يُطلع عليه الناس" ..

انظر أى معيار حاذق وصادق يرفعه الرسول للسلوك!!

إنه يربط السعادة بالبر - ويربط الشقوة بالألم..

لأن السعادة قطعاً فى طمأنينة النفس؛ وفى شجاعة القلب، وهما

ثمرة الحياة الواضحة النظيفة العائشة فى النور والظهر..

أما قلق النفس، وضجر الضمير، والحياة التى تطاردها أشباح

الخوف، والندم، واللوم.. فتلك هى التعاسة، وذاك هو الشقاء.

فالفضيلة. ليست ألماً ولا مشقة - بل هى بهجة ورواء، إذا أَحْسَنَّا

فهمها، وإذا لم تتحول بين أيدينا إلى تَزُمْت، وكَبْت، وإرغام..

إن كل فرد مِنَّا، يجىء الحياة مُزوداً بالقدرة على فعل الخير، وفعل

الشر..

والفضيلة، ليست سلعة تُباع فى الأسواق - إنما هى حياة تُصاغ،

وتُشاد..

إن إدراك الفضيلة، فن عظيم، فتعال نبداً من البداية لنرى كيف

يمكن إدراكها..

هناك وصية موجزة لكنها بليغة - قالتها أم لابنتها: "يابنية: لقد جئت

بك إلى الوجود.. وهذا أقصى ما أملكه لك: أما بقية الطريق، وتحويل

وجودك إلى حياة، فأمره إليك وحدك" ..

[www.alkottob.com](http://www.alkottob.com)



[www.alkottob.com](http://www.alkottob.com)

أما الشر فاجتهدُ أن تتركه كله، فليس وراءه خير أبداً.  
ولن يكون حصاده سوى العاصفة.  
لا تقترب شراً، فإن الديان يقظان، وكما تدين تُدان..

\* \* \*

أما الخطأ، فلا مهرب لإنسان من الخطأ..  
من أجل هذا، لا أقول لك تجنّب الأخطاء.. لأن هذا يشبه أن أقول  
لك: تجنب الحياة..

إن الله يخاطب الناس فيقول: "هو أعلم بكم إذ أنشأكم من  
الأرض، وإذ أنتم أجنّة في بطون أمهاتكم، فلا تركّوا أنفسكم.."  
فأنت يا ابن الأرض، ويا حامل تركة الآباء والأجداد - في طبيعتك  
الخطأ..

وذلك لا يعنى أن تستسلم للأخطاء.. أو تُوغِلَ فيها بغير حساب.  
إذن ماذا عليك أن تفعل..؟

هو ذا : - "ارتكب أنظف الأخطاء.."

اجعل هذه العبارة إحدى بل أهم قواعد سلوكك، تنج من كثير مما  
يسوؤك التورط فيه..

إذا كان لا بد من الخطأ، فلتكن أخطاؤك كريمة، نظيفة، فإن  
الأخطاء النظيفة تحمل إمكان التحول والتعلية..

ولا أحسبك بحاجة إلى أن أبين لك: ما هو الخطأ النظيف فالحلال  
بيّن، والحرام بيّن

ولكن إذا كان في ضرب الأمثلة ما يفيدك؛ فدعني أضرب لك هذا  
المثال..

لنفترض أن قد شَجَرَ بينك وبين آحر خلاف. تطوّر إلى رفع الصوت.. وحِدَّةِ المِرَاءِ، فتسابُتُما، وتشاتَمُتُما.. إن تبادل السباب والشتم. خطأ أخلاقي.. لكن هذا الخطأ، يمكن أن يكون نظيفاً.. ويمكن أن يكون غير نظيف.. تستطيع - إذا غلبتَ على أمرك في هذا الخطأ - أن تمارسه برفق وترفّع..

فإذا اخترت للتعبير عن غضبك، كلمات مهذبة، حولتَ خطأك الذى هو الغضب، إلى خطأ نظيف مترفع.. أما إذا استعملت الكلمات السوقية، وتناولت الآباء والأمهات فقد ارتكبت خطأ هابطاً.. خطأ غير نظيف..

وعلى هذا المثال، نستطيع أن نقيس، ونستطيع أن نتبين طبيعة الخطأ النظيف، سواء في آداب السلوك، أم في نشاط الغرائز، والجنس..

إن العناية باختيار أخطائك، وتهذيب مستواها، آية من آيات النمو النفسى القويم.

لأنه إذا كان كل بنى آدم خطأ، كما قال رسول الله ﷺ.. فإن خيار بنى آدم هم الذين تكون أخطاؤهم كريمة نظيفة.. وهم بالتالى الذين لا يُصِرُّون على أخطائهم؛ لأن آية الخطأ النظيف، أنه فُصِّدُ عابِر.. وليس "نزيفاً" مستمراً..!!!

مرة أخرى: لا أقول لك: تجنّب الخطأ.. لأن هذه النصيحة خيالية، بقدر ما هي متهافنة..

إنك لا تقول لمن تخاف عليه وطأة الهواء: احذر التنفس..!

[www.alkottob.com](http://www.alkottob.com)

[www.alkottob.com](http://www.alkottob.com)

إن هذه القاعدة، تصدق أخلاقياً، بنفس المستوى الذى تصدق فيه علمياً..

فإذا أخذت نفسك إلى الفضيلة بغير هوادة - غافلتك ذات يوم، وانقذت صوب الرذيلة بلا هوادة.. بنفس القوة.. وضد الاتجاه.. فاحذر قمع نفسك..

إن الرسول عليه الصلاة والسلام وهو صاحب دين من شأنه أن يطالب بمزيد من الفضيلة والتقوى.. كان دائم التذكير بهذه الوصاة: "إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، فإن المنبت، لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى..!!"

العَبُّ.. وامرَحُ.. وتهلُّ.. واعلم أن أدنى مستوياتك الخلقية، تتضمن أعلى ما ترجو لنفسك من مستويات.. تماماً، كما تتضمن البذرة الشجرة.. وكما يكمن فى الطفل الرجل..!!

ولكن، كما يظهر الرجل من الطفل، والشجرة من الثمرة عن طريق التطور، لا الطفرة.. والمحاولة، لا القسر.. فكذلك مستواك الأعلى، ينبثق من المستوى الأدنى شيئاً فشيئاً.. إذا أنضجته على تجارب هادئة، معتدلة.. لا محاولات حادة رعناء..

هناك أناس يتوسلون للفضيلة باضطهاد غرائزهم، وقهر نوازعهم.. وردم كل منابع الطاقة فى طبيعتهم الإنسانية.. هذا خطأ، وزِيغ..

فنحن حين نريد الظفر بفاكهة أجود مذاقاً، وأبهى عبيراً.. لا نقتلع شجرتها من الأرض.. إنما نطعمها بالنوع الأجود الذى نريد شبيهه،

فتستجيب الشجرة، وتعطى من الثمر ما نريد..!!

عاملٌ نفسك هكذا..

لا تحاول أن تقتلع غرائذك، أو تردم منابعها.. فإنك بهذا تعطل حياتك، وتتعجل فناءها الأخلاقي والمادى معاً.

\* \* \*

وشر أعداء تفوقك الأخلاقي، اجترار الندم، وإدمان اللوم.

فلا تُنفق قواك البِنَاءة في إدمان الندم على ما تورطت فيه من خطأ..

لا تظن أنك إذا زللت. أو حتى واقعت خطأ فادحاً، أنك انتهيت..

فهيئات لمثلك أن ينتهى..

إن في داخلك من القوى النفسية المذخورة. ما لا يُؤذَنُ بانتهاء

أبدأً. ومعك من القدرة على إصلاح الخطأ، والتفوق على الزلل، ما لا

ينبغي معه يأس أو ندامة.

إنك واحد من النوع الذى اتخذته الله خليفة.. النوع الذى جعله

الله أستاذ هذا الكوكب، ومهندس، ومُفَجِّر الحياة فيه..!!

من أجل هذا، أمدك بقوى تحطم كل يأس.. وطاقات تجاوز كل

عجز..

والقدرة التى يحقق بها نوعك الإنسانى هذه الانتصارات العلمية

الباهرة.. معه مثلها أو أكثر منها، ليحقق بها انتصارات أخلاقية أبعد

منالاً، وشأواً..

أنت فرد.. اسمك أحمد، أو على..

ولكن خصائص البشرية كلها - يا هذا الفرد.. تحتشد فيك بكل

هِمَمَتِهَا وإعجازها..!!

[www.alkottob.com](http://www.alkottob.com)



[www.alkottob.com](http://www.alkottob.com)

واعلم أن لله عبادةً، إذا أرادوا، أراد..!!!  
فاحمل إرادتك، وزودها بالذكاء. وحسن التقدير وامض فى طريق  
الخير والفضيلة.

إنك حين تذهب لشراء ثوب لك أو جورب، تنتقى أجود الأصناف  
التي تسمح بها قدرتك الشرائية..  
فإذا ذهبت لتشتري لك حياة.. أفلا تختار أعظم وأبهى ما تسمح به  
قدرتك الإنسانية..

ألا فاعلم أن قدرتك بعيدة الحدود جداً..  
واعلم أن الحياة، لا تُشترى جاهزة، وإنما تُنسخ، وتُصاغ، وتُبنى،  
ووسيلة هذا: الإرادة الذكية..

وإرادة الفضيلة تعنى المثابرة على الأعمال الفاضلة..  
إن حياتك الخلقية، ليست أكثر من مجموعة من المواقف السليمة  
حوكمتها المثابرة إلى عادة، فأصبحت خُلُقًا وسلوكًا..!!  
اذكر هذا جيداً..

الأخلاق الكريمة، هى مجموعة من المواقف السليمة، يشار عليها  
صاحبها حتى تصير عادة..

فاشحذْ اهتمامك باختيار هذه المواقف، والتزمها..  
من أشدها ضآلة.. إلى أنفسها قيمة..  
من الطريقة التي تُعامل بها خادمك.. إلى الأسلوب الذي تحترم به  
وتعامل رئيس دولتك..

من الطريقة التي تشتري بها "قلم رصاص" من بائع متجول إلى  
الطريقة التي تهين بها نفسك لنيل منصب كبير..

موقفك من نفسك فى خلوتك..  
 موقفك من أسرتك..  
 موقفك من زملائك فى العمل، وأصدقائك فى الحياة..  
 موقفك ممن تعرف.. وممن لا تعرف..  
 موقفك من الذين تحب.. ومن الذين تكره..  
 موقفك من المحسن إليك.. ومن المسيئ..  
 طريقتك حين تبتسم، وحين تضحك، وحين تُعَبَس..  
 حين تتحدث، وحين تصمت، وحين تُصغى..  
 حين تعطى، وحين تأخذ..  
 حين تمشى، وحين تقعد..  
 حين ترضى، وحين تغضب..  
 موقفك من مظالم تقدر على دفعها، ومن ظالم، تقدر على زجره..  
 موقفك من آلام الناس، ومن آمالهم..  
 من فضائلهم.. ومن أخطائهم..  
 موقفك من القضايا العامة، والواجبات العامة..  
 كل هذه المواقف تشكل حياتك الأخلاقية، بل وحياتك كلها..!!

\* \* \*

واذكر، وأنت تتخذ هذه المواقف، لتنسج منها فضائلك.  
 اذكر، وتَوَخَّ، واجعل غرض سعيك الأخلاقى، أن تكون فاضلاً.. لا  
 "محترف" فضيلة..!!

هناك فارق بين إنسان "أمين" وإنسان "يتحلى" بفضيلة الأمانة..  
 الأول: حقق نموه النفسى كل أغراضه الفاضلة..

www.alkottob.com

[www.alkottob.com](http://www.alkottob.com)

الأخطاء الخلقية الهينة التي يفصدها سلوكك الرفيع بين الحين،  
والحين.

\* \* \*

إن العلامة الصحيحة المميزة للمستوى العالى للفضيلة، لا تتمثل  
إذن في العِصْمَة من الزلل..  
إنما تتمثل في مساعدة نفسك، لتصير إنساناً فاضلاً..  
ومساعدة الآخرين ليكونوا فضلاء..  
فآية مجاوزتك المستويات العادية للفضيلة..  
آية تفوقك، وبلوغك درجة الإنسان الفاضل " هي أن تساعد الآخرين  
على السير في ذات الطريق.. هي أن تشارك في إيجاد الظروف التي  
تيسر للآخرين أن يكونوا مثلك..  
وهذا يقتضيك ألا تسارع إلى إدانتهم..  
يقتضيك ألا تزهُو عليهم بفضائلك أو تشنى عطفك عنهم لأخطائهم.  
يقتضيك، أن تسير معهم وفق الحكمة القائلة.. " من عرف كثيراً؛ عُفِرَ  
كثيراً " ..

يقتضيك أن يكون حديثك عن الناس، وإليهم بلسان دافئ.  
لا تشغل نفسك بتعقب أخطائهم، لأنك مشغول بتهيئة الأسباب التي  
تجعلهم يتقدمون؛ ويتفوقون.  
وفي نفس الوقت، لا تخذعهم عن أنفسهم؛ ولا تجاملهم في  
أخطائهم، ولا تسكت عما يلحقونه بأنفسهم من سوء..  
بل تقول لهم الكلمة الطيبة التي ينتظرونها لتقوم أعوجاجهم..  
تقولها في حنان، وحرص، وبر، حتى تبلغ من أنفسهم مَكْمَن العلة

فتزِيلها ومفتاح التفوق فتديره..

\* \* \*

ولا تطلب على الفضيلة أجرا..

إذا كنت تبني حياتك بناءً أخلاقياً فاذاً ذكر دائماً أن الفضيلة غاية لا وسيلة..

واذاً ذكر أنك تجاهد في سبيل امتلاكها، لا لتتقايضَ عليها بشيء أثنى منها.. ولا لتكسب بها بين الناس شهرة أو مالاً..

ولكن لتربح حياتك نفسها..

اذاً ذكر أنه ليس في حياة الناس كلها ما يمكن أن يكون ثمناً للفضيلة، سوى الفضيلة ذاتها..

إننا نُحلى الأشياء بالسكر.. ولكن بم نحلى "السكر" نفسه؟؟

لا بشيء.. إن السكر حلاوي نفسه..!!!

الفضيلة كذلك، مَثوبة نفسها..

وحسبُك جزاء عليها، توفيقك إليها..!!

هناك حكمة جزيلة تقول:

"أكثر الناس جهلاً بالخير، أعلاهم صوتاً في طلب الأجر عليه.."

فإذا فعلت الفضيلة، ابتغاء شيء سواها، خسرتها.. وإذا فعلتها

ابتغاء ذاتها ربحتها..

على أن ثواب الفضيلة الذي ترجوه من الناس، مُدْرِكُك لا محالة.

وحتى إذا قُسم لك أن تكون فاضلاً بين قوم يجحدون الخير، ويسخرون

من كل سمو يُعجزهم نواله فسيكون هذا الجحود مُنطويّاً على أعظم

مَثوبة..

[www.alkottob.com](http://www.alkottob.com)



[www.alkottob.com](http://www.alkottob.com)

www.alkottob.com

إذا أخذت بالوصية الأولى، فصرت مُحِبًّا ودوداً ..  
 وعملت بالثانية، فنحيت الخوف، نهضت شجاعاً قوياً .  
 وظفرت بالثالثة، فعشت عيشة فاضلة.  
 فأنت الآن مهياً لجلال الأمور، فاستقبلها بعزم.  
 "إن العظام كفوها العظماء" ..!!  
 وإليك إذن الوصية الرابعة:  
 - أن تحمل رُوح الرواد  
 - وتبحث عن الدروب التي لم تُطرق بعد..  
 - وتُضيفَ إلى الحياة.. ما لم يفعلهُ من قبلك أحد..!!  
 هناك حديث مُضِيٌّ قاله الرسول ﷺ : "إن الله يحب مَعَالِيَ الأمور،  
 ويكره سَفَاسِفَهَا"  
 ومَعَالِيَ الأمور: غاية كل إنسان ذكى القلب، مستبسل العزم.  
 وأنت، كما نمت شخصيتك، وربتْ همتك، واستقامت غايتك، ازداد  
 هُيامك بالعظام، مهما تكتنفها المشاق، وعانقتْ رُوحك الجلائلُ،  
 مهما تتطلب من تبعات.  
 إن رواد المجهول، المولعين دوماً بالسير في الدروب غير

[www.alkottob.com](http://www.alkottob.com)

[www.alkottob.com](http://www.alkottob.com)

هو عمل كل البشر فى كل العصور..  
 وحين يصير عملك "علامة ضوئية" تتركها للناس على طريق لم  
 يكونوا يعرفونها، فقد فعلت فعل الرواد العظام.  
 انظر ..

إن "ماركونى" لم يصنع لنا كل ما ترتب على كشفه الأول من  
 مخترعات.. ومع هذا فسيظل مكانه فى التاريخ، وفى قلوب الناس كما  
 لو كان صانعاً بيديه كل ما حدث وما سيحدث من معجزات هدى إليها  
 كشفه الأول وخواتمه الأولى..!!

ولكى تمنح عملك الإبداع الجديد الذى تجعله حلقة جديدة فى  
 سلسلة تطورنا - عليك أن تتقنه..

إن إتقان العمل - أى عمل - يعكس كل ما ينطوى عليه صاحبه من  
 خلق، واستعداد، ونُضح..!!

وهذا "الإسكاف" الذى يَخِيطُ غرزته، وكأنه فى عبادة.. ويدق  
 مسماراً فى عناية من يصنع طائرة.. تبتهج الحياة به ويعمله - أكثر من  
 ابتهاجها بهذا الذى يأتى أعمالاً كِبَراً بيد مرتعشة، وقلب زائغ،  
 واهتمام فاتر.

وإتقان العمل فن عظيم، وهو لا يتمثل فى معرفتك، كيف تعمل  
 فحسب.. بل وفى متى تبدأ؛ ومتى تكف..؟

سُئل مثلاً إغريقى كبير: كيف سبقت معلمك، وتفوقت عليه؟  
 فأجاب: كان معلمى عظيماً؛ لا ريب.. بيد أنه لم يكن يعرف متى  
 يجب أن يرفع يده عن التمثال..!!

فالحظة التى ينبغى فيها أن تبدأ.. واللحظة التى ينبغى فيها أن

تَكْفُ.. لهما أثر بالغ في إتقان عملك..  
 ولكي تتقن عملك - لا بد من أن تحبه.  
 وأنت ستحبه قطعاً، إذا اخترت مادته ونوعه..  
 فاختر عملك إذا استطعت لهذا سبيلاً..  
 اختر ما تعلم أن إمكاناتك تؤهلك له - وتعطيك القدرة على التفوق  
 فيه.

وإذا لم تستطع أن تختار عملك، فأحبه حتماً..  
 إن حب العمل ضروري لإجاده..  
 وإذا لم تستطيع أن تعمل ما تحب، فلتحب ما تعمل..!!  
 إنك لا تدري.. لعل هذا العمل الذي فُرض عليك يكون نعمة كبرى  
 لك..

ولعل الأبواب الموصدة التي حالت بينك وبين عمل كنت تريده  
 وتتمناه.. لعلها أُوصِدَتْ لتسلك سبيلاً أخرى ينتظرك عليها قدرٌ عظيم،  
 وغدٌ بهيج..!!

أحِبْ عملك، لأن عملك هو في النهاية حياتك..  
 واعلم أنه ليس في الدنيا؛ عمل حقير؛ وعمل عظيم إلا بقدر وبطبيعة  
 ما يبذل في كل منهما من جهود..

وكل عمل صغير تتفوق فيه؛ يتحول من قُوْرِهِ إلى عمل عظيم..  
 وكل عمل قديم تبتكر فيه، يتحول بدوره إلى عمل جديد..  
 إذا كنت زارعاً؛ أو صانعاً؛ أو طالباً؛ أو استناداً؛ أو طبيباً أو  
 مهندساً؛ فاعلم أنك تُمسك بنواصي عملك كله.. وأن قدرًا كافيًا من  
 الولاء له والجهد فيه؛ كفيلاً بأن يخرج لك خبئه، ويجلي عظمتها!!

[www.alkottob.com](http://www.alkottob.com)



[www.alkottob.com](http://www.alkottob.com)

وهذا عمل - ليس سوى جمع عشب، وكنس طريق، وتشذيب شجر..!!

ومع هذا؛ فلا النشأة ولا العمل.. على ما فيها من ضالة ومسكنة.. بقيا في نفس المستوى الذي تسلمهما عنده "كارفر" .. بل نفخ فيهما من روحه وصدقته، فإذا الزنجى الرقيق أستاذ من أساتذة البشرية..!! وإذا جمع العشب، عبقرية تتجلى في اكتشافات مذهلة، ومخترعات جليلة نافعة..!!

إنه سر واحد..

إنها روح الرواد.. حملها الفتى، وبث منها في عمله فكان كل هذا الإعجاز..!!

كان "كارفر" يتغنى دائماً بهذه الحكمة:

- "إن الأفاذ الذين يرتادون المجهول بلا خريطة ولا مٌصوّر...

"الذين تتلهف فيهم الأرواح على أداء الأفعال الجسام.. هم الذين ينيرون السبيل أمام الأكرين" !!!

\* \* \*

الذين يرتادون المجهول بلا خريطة ولا مٌصوّر..؟؟

إن "كارفر" يضع أيدينا على سر العظمة..

السير بلا خريطة.. نبذ التقليد والتبعية؛ السعى في العمل وراء الجديد الذى لم يكتشفه من قبل أحد.. فلكى تحمل روح الرواد؛ ابتكر، ولا تقلد..

حرك عقلك فى جميع اتجاهاته الواسعة، ولا تولع بالسير وراء الآخرين.

انتفع بتجاربيهم.. ثم احمل تجربتك أنت؛ وشقّ لنفسك طريقاً..  
 إن طرق الله فى الحياة لا حصر لها، ولا مُنتهى.. ولقد خُلِقنا  
 كثيرين. ولم نُخلق فرداً واحداً.. وأُعطينا عقولاً كثيرة؛ ومشيئاتٍ  
 كثيرة.. لا عقلاً واحداً، ولا مشيئة واحدة.  
 وذلك؛ ليكشف كل منا الجزء المنوط به من مجهول الحياة،  
 والعمل.

والذى يكتفى بتقليد غيره، إنسان انسحب من الحياة؛ وألغى دوره  
 العظيم..

وأنت حين تسير فى الشوارع المُعبدة الممهدة، لا تأتى أمراً  
 مذكوراً..

أما حين تبحث عن درب غير مطروق.. وتكشفه، وتنادى الناس إليه،  
 وتصله بطرائق الحياة الكبرى الواسعة فأنت إذن الرائد الذى يبتهج بك  
 قلب الحياة..

فمهما يكن عملك، لا تقف فيه حيث وقف غيرك.. بل ابدأ من حيث  
 انتهى سلفك..

لا تبذل فيه جُهد الهمَل، بل ابذل جهد الرواد..

كن أحد الذين ينيرون السبيل أمام الأَكثَرين.

لو اكتفى "جورج وشنطن كارفر" من الفول السوادنى، ومن البطاطا  
 بأكملها، كما أفعل أنا؛ وأنت. أو حتى لو اكتفى بمجرد الدراسة،  
 وبمجرد الحصول على الإجازات العلمية، لظل دوره عادياً.

لكنه صمم على أن يحقق وجوده، ويضيف للحياة جديداً. صمَّم على  
 أن يسير سير رائد - لا سيرة تابع..

[www.alkottob.com](http://www.alkottob.com)

[www.alkottob.com](http://www.alkottob.com)

ولكنهم جميعاً سواء فى روح الكامن داخلهم..  
 وسواء فى العزيمة القادرة على بلوغ ما يريدون..  
 هناك - لا غير - ناس يستعملونها.. وناس يهملونها، ويتركونها  
 للصدأ والبوار..  
 انظر..

إن أكثر الذين فجروا طاقات الحياة؛ ودفعوا قافلة التقدم - كانوا  
 إما فقراء؛ أو مرضى؛ أو ذوى تعاسة فى حياتهم. فبأى قوة خلّقوا؛  
 وخلقوا..؟؟

إنه؛ هذا الذى لم يحرم الله منه أحداً.. إنه الحافز الروحى الفذ؛  
 الذى تتألق مظهره، وإن خفى - إلى حد كبير - كُنْهه..  
 إنه هو الذى جعل من "محمد" اليتيم، أباً للبشرية كلها..  
 ومن "المسيح" المضطهد، بهجة العالم وسلامه..  
 ونقل "عمر بن الخطاب" من فتى يرعى شؤبهات خالاته نظير حَفنة من  
 التمر - إلى أمير للمؤمنين، يرفع لواء العدل والتوحيد فوق أنقاض  
 كسرى وقيصر..!!

وجعل من "إبراهيم لنكولن" الصبى الحطّاب، رائداً من رواد  
 الإنسانية الحديثة، والتاريخ الحديث..!!  
 وصنع من "كارفر" ما سمعت..  
 ويصنع من كل إنسان مثل ذلك، إذا فتح بصيرته على مركز القوى،  
 وحرك بيد قوية مفتاحه..

إنه - كما قيل - من قبل: "لا مستحيل على القلب الشجاع"  
 والعزيمة تتطلب مثابرة لا تكل، وصبراً لا يمل..

والذين يملكون أزيمة الصبر والمثابرة يتهيأون لكل عمل عظيم.  
عندما كانت تضيق حلقة الاضطهاد حول رسل الله، كان الأمر الذي  
يُنزل عليهم:

- "اصبروا" ..

- "لا تيأسوا من روح الله" ..

فاصبر على أداء واجبك، وثابر على تجويد عملك، ولا تيأس أبداً..  
اجعل شعارك "غداً تغرد العاصفير" ..

فإذا غلبك اليأس، فقل: "بعد غد، تغرد العاصفير" !!

احفظ عليك هدوءك، وإصرارك، ولا تيأس..

إذا اقتلعتُ الريح خيمتك، فاعلم أن القدر يدعوك لتبنى مكانها  
قصرًا ..

وإذا انفجرتُ البراكين حولك فقل: إن القدر يحرث لى الأرض،  
لملأها غراساً وبذراً..!!

"إن يد الله تخفُّ بالنجدة لكل مثابر، دعوب"

هكذا قال الحكيم؛ وإنه لصادق..

\* \* \*

لا تحقرْ عملك أيا كان نوعه..

ولا تستهن بواجبك..

واعلم أنه خير لك أن تكون "الأول" فى عمل صغير، من أن تكون

"الأخير" فى عمل كبير..

والأولوية التى تريدها طبعاً هى أولوية التفوق الحقيقى المستمد

من خُلقك ومثابرتك وذكائك..

على أن الأمر - كما ذكرنا من قبل - أنه ليس هناك عمل صغير أبداً،  
إذا كان الجهد المبذول فيه كبيراً، ونبيلاً.  
دعنى أقص عليك هذا المثل الطريف..  
كان في حى "الحسين" بالقاهرة؛ رجل عظيم الحدق فى صنع  
"الطعمية" ..  
رجل، لا بد أنه نشأ كما ينشأ أترابه.. صبيّاً يشتغل بهذه الحرفة لكنه  
ليس ككل صبي.. بل مفتوح العين، مُرهِف الحس، متفانياً فى معرفة  
عمله وإتقانه..  
وكبير، وصار صاحب عمله، وسيد حرفته..  
كان الناس يقصدونه من كل مكان..  
كان الوزراء، والكبراء.. يسعون إلى حانوته الصغير، أو يرسلون من  
يحمل إليهم من عنده ما يشتهون..!!  
أليس طهو الطعمية، وبيعها، من الحرف الدنيا فى بلادنا..؟  
ومع هذا، فقد جعل هذا الرجل من نفسه مَلِكًا مُتَوَجِّهاً اسمه "ملك  
الطعمية" ..  
أجل، هكذا كان لقبه بين الناس..  
فبأى حق، أخذ المُلْك، وليس التاج..؟؟  
إنه حق التفوق..  
كان "الأول" فى عمله، على الرغم من مستوى هذا العمل..  
فصار واحداً من "الأوائل" فى قومه ومجتمعه..!!  
فاجعل همك أن تكون "الأول" فى عملك.. تسارع إليك كل فرص  
الخير، والفوز، والتوفيق..



وهي كما قلت لك "ألوية" جدارةٍ وبذلٍ.. لا أولوية، ادعاء،  
واستعلاء..

\* \* \*

وإذا أردت أن تكون رائداً، فتخلق بأخلاق الرواد واعلم أن الريادة  
بطولة..

والبطولة الحققة، لا تُعنى بالشهرة ولا بالمجد، وإنما تعنى بالعظمة..  
افتح بصيرتك جيداً على هذه الكلمات التي أكتبها لك بحروف  
كبار:

"دع المجد والشهرة للحمقى، واذهب أنت بالعظمة"

والعظمة: شيء مختلف عن المجد، بعيد من الشهرة..

العظمة: عمل من أجل العمل..

أما المجد: فعمل من أجل الزهو، كما أن الشهرة عمل من أجل

الغرور..

العظمة: خلوص الشخصية من آفاتهما، وخلوص العمل من بواعث

النفعية والوصولية..

العظمة رفعة، تحقق نفسها بالترفع..

والشهرة، كثيراً ما تحقق نفسها بالتهالك!!

والإنسان العظيم، يسعى إليه المجد، وتخدمه الشهرة.

أما طالب الشهرة والمجد، فإنه يتحول إلى خادم ذليل لهما، وإلى

تراب تحت أقدامهما!!

"العظيم" لا يتهافت على الشهرة، بل يهرب منها، لأن في ضوضائها

خطراً على سكينته نفسه، وتبطل روحه، وسيادة عقله..

و "العظيم" واحة يتلمس الأحياء عندها راحتهم، وقوة تحقق بها الحياة كيانها..

و "العظيم" بسيط في مظهره واثق بنفسه.

هو يعلم أن لديه كثيرا مما يريد العالم. ويحتاجه الناس..

وهو يقدم هذا الذي عنده في غير من، وفي غير صلف..

هو:

يعطى، ولا يسأل..

يمنح، ولا يأخذ..

يقبل، ولا يدبر..

يواجه، ولا يهرب..

يتفانى، ولا يتردد..

إنه يخدم الناس، لا طمعا في مال، ولا في ثناء.

وهو يؤدي دوره في استبسال وغبطة، فإذا جاء النصر، وخفقت

راياته - انسحب في هدوء، باحثا عن واجب آخر يؤديه، وبطولة أخرى

يحققها !!

لا يقف لحظة، ليقول للناس: انظروني..!!

ولا يطالب لنفسه بامتيازات خاصة لقاء ما أدى. وجزاء ما فعل. وهو

مهما تعل مكانته، لا يفتأ يعيش.. "واحد" بين الجميع، ويرفض أن

يعيش "سيدا" فوق الجميع..!!

ذلك أن ثراء مواهبه وروحه. يمنحه دائما شعبا وريا، فلا يعود يرى

في الأمجاد التي يتهافت عليها الصغار سوى فتات لا تقع عليه عين

مشغولة بالمناعم، ولا تتشهاه نفس شعبانة بالطيبات..!!

والساعى إلى "العظمة" كبير - دائما - حتى إذا زلت قدمه وغلبته  
العثرات..

أما الساعى إلى الشهرة فصغير - غالبا - ولو كان فوق رأسه تاج..!!  
الإنسان العظيم كالمحيط.. هادئ قوى..!!  
وكضوء الفجر.. مبشر وندى!!  
وكروح الربيع.. مبهج وثرى!!  
ألست أدعوك للخير إذن حين أقول لك: "دع المجد والشهرة  
للحمقى، واذهب أنت بالعظمة..؟؟"  
أجل: فاجعل مناط سعيك فى الحياة..  
أن تكون رائدا..  
أن تكون نافعا..  
أن تكون عظيما..

\* \* \*

إنك إذا تتبعت سير الرواد الكبار الذين غيروا وجه الزمن،  
وأحسنوا صوغ المصير لوجدتهم بلا استثناء أصحاب عظمة، لا طالبى  
مجد، ولا متسولى شهرة..  
ستجد كثيرين منهم إن لم يكونوا جميعا، قد نأوا عن الأضواء  
والراحة. ورضوا العمل الصامت. وآثروه على الضجة الفارغة..  
وعلى الرغم من أنهم قضوا حياتهم؟ عائشين فوق اليم، بعيدين من  
المرافى، مواجهين المخاطر.. فقد زهدوا فى الحرص على الإطراء،  
ولم يسمحوا لتصفيق الإعجاب أن يفسد عليهم تأملاتهم، أو ينال من  
تواضعهم، وتنازلوا عن حقهم فى كل جزاء وشكور..

ذلك لأنهم أحبوا العظمة الصادقة وعشقوها، وعرفوا ما تنطوي عليه  
من مثوبة تتضاءل دونها كل المثوبات، فحموا تبعثها؛ وآثروا  
صحابتها...!!



www.alkottob.com

## الوصية الخامسة

لا تعش وعلى عينيك عصابة ..

وامض بصيراً

في يمينك "إلى أين" ؟ ..

وفي يسراك "لماذا" ؟ ..



www.alkottob.com

أنت فى الحياة حدت جديد، وطاقة جديدة..  
ويوم وجدت، امتلاً فى الحياة فراغ كان ينتظرك، ولا يملؤه بعد  
وجودك أحد سواك..  
وهذا يحدد واجبك تجاه الحق الذى للحياة عندك حين صرت  
واحداً من أبنائها وجنودها..  
وقوانين الحياة بل قوانين الكون، تقوم أول ما تقوم على الترابط..  
إذا انزلت الأرض عن مدارها حول الشمس جزءاً من الثانية، بادت  
فى جزء من الثانية..!!  
إذا تلوث هواء بغبار ذرى كثيف، هلك الذين ينشقونه من الأحياء..  
الكون كله، عائلة واحدة..  
والحياة الإنسانية، قلب واحد..  
ونحن - فى الدنيا - ركب سفينة تمخر الغباب، ويستطيع أحدنا أن  
يغرقها بما فيها، إذا سمح له الآخرون أن يثقبها بمسمار..!!  
إنك - قطعاً - لا تود أن تكون ذلك الواحد..  
وتستنكر بشدة أن يساء بك الظن، ويدور فى خلد أحد أنك هو..  
ولكنى أقول لك: إنك تثقب السفينة كل يوم؛ وكل ساعة؛ إذا

أغمضتَ عما يجرى حولك عينيك، جاعلاً شعار حياتك العاجزة "وأنا ما لي" ..!!

\* \* \*

إن الحياة ترفض الإمعية..

ولو كان عيش بعض الناس كلاً على البعض الآخر مما تقبله الحياة.

إذن لا اختصرتُ نفسها، وتخففتُ من أعباء الكَمِّ فيها..

هناك بيت من الشعر يقول:

قد هيأوك لأمرٍ لو فطنتَ له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل.

هذا ليس خيالاً، بل حقيقة..

وهذه الحكمة مُوجَّهة لك..

فأنت شيء كبير هائل..

إن القوى التي تعمل في الشمس، وتجعل منها شمساً..

وتعمل في الذرة، وتجعل منها هولاً.. هي نفسها التي تعمل فيك

وتجعل منك أنت..!!!

والحياة الإنسانية، تتمثل فيك، كما لو كنت الجنس البشرى كله..

من أجل هذا، كانت مسؤوليتك أبعد آماداً من حدود نفسك وتُخوم ذاتك..

ومنذ أضاءت الحياة فيك، وصرتَ واحداً من شموعها الكثيرة،

وأنت بالنسبة إليها حدث هام بالغ الأهمية..

وإذا كُنتَ "حودياً" فمسئوليتك عن الحياة، لا تقل عن مسؤولية

"الملك" لأن حفاوة الحياة بالحدوى وبالملك سواء..



أليس لك مثل ما له عينان.. ولسان وشفتان، وإرادة، وعمل..؟  
 إذن، فلك دور فى الحياة ينتظرك.. ومسئوليتك عن هذا الدور  
 تتساوى فى التحليل النهائى لها، مع مسؤولية الملك عن دوره..!!  
 ذلك أن الحياة لا تنمو بالأعمال الجهيرة وحدها. بل هى تستمد  
 نماءها من كل عمل.. بل إن الأعمال الكبيرة نفسها، ليست إلا  
 المجموع الكلى لأعمال صغيرة..

فلا تخالَنْ نفسك تحيا على الهامش، فليس للحياة هوامش..  
 فافتح عينيك، ولا تعش وعليهما عصابة..  
 ولكى تكون قادراً على أداء دورك الحى، كن بصيراً بزمانك..  
 إن الحياة اليوم خِصْمٌ كبير يتفجر بالحيلة وبالذكاء..  
 فواجه الخصم بعينين مفتوحتين، ومسئولية مبصرة.  
 لقد انتهت عصور الإذعان، والتلقى، ولم يعد ناس اليوم صالحين  
 للسير صُماً وعمياناً..؟  
 والذى يسير أعمى وسط الزحام، ستدوسه الأقدام وتطحنه  
 العجلات..

ضع قدميك على الصخر.. إذا أردت ألا تبتلعك الهوة الفاغرة.  
 ابحث، وناقش، وتساءل.. واجعل ضمن تسايحك المقدسة: إلى  
 أين..؟ ولماذا..؟

دائماً تساءل: كيف..؟ إلى أين..؟ لماذا..؟  
 واعلم أنه لن يضيق بهذا التساؤل سوى الباطل.. أما الحق فلا شىء  
 يثلج صدره مثل هذا، التساؤل الذكى الدعوب..!!  
 من أجل هذا، ولأن الله هو الحق المبين، فقد حضَّ الناس على أن

يتساءلوا، وينظروا في ملكوت السماوات والأرض، ويحاولوا معرفة كل شيء.. من: "كيف بدأ الخلق" إلى - "وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى" ..!!  
وأثابهم على هذا بوعده منه أن يكشف لهم من الأسرار ما يريدون  
كشفه ومعرفته:

"سأريكم آياتي، فلا تستعجلون" ..!!!

إن كل تسليم مطلق، نقص كبير من نفوذك، وأذى يحيق بقضية الحياة كلها..  
والتصميم على أن تعرف، جزء كبير من مسؤوليتك، كمواطن، وكائن..

فلا تضح برأيك، ولا تتلاش في غيرك.. ولا تكن إمعة تطفو فوق العباب.. بل ارفع رأسك عاليًا بين الرعوس؛ ورقبتك بين الرقاب..  
حاول أن تفضّ بالسؤال مغالبيق ما لا تعرف؛ من آفاق الكون العليا - إلى سير الحياة في شارعك؛ أو في زقاقك..  
وكن من الذين يجيئون الدنيا مُزوِّدين بفضيلة الإصغاء؛ وفضيلة التساؤل..

ولا تقف أمام شيء - ولا تُجفّل عن استطلاع غيب عقائدك، وأفكارك، واتجاهات قومك وعصرك..  
كل هذا أخضعه للسؤال.. وطلب المعرفة، والمنقذ النزيه الأمين القوى..

هناك حكمة جليلة، قالها "المسيح" حين داوى مريضاً يوم سبت، فأراد خصومه أن يتخذوا من هذا العمل سبيلاً للتشهير به والتأليب عليه، إذ مارس العمل في يوم عطلة الرب؛ كما يزعمون..

هنالك قال لهم المسيح:  
"إنما جعلَ السبت من أجل الإنسان، ولم يخلق الإنسان من أجل  
السبت"!!

أجل.. إنما جعل السبت من أجل الإنسان..  
كل شيء هنا - وجد من أجل الإنسان..  
العقائد، والأفكار، والقوانين، والحكومات..  
كل شيء، من أجل الإنسان..  
فتقدم، ومارس حقوق سيادتك تجاه كل شيء..  
أخضع كل شيء لعقلك، حتى العقائد..  
لا تخش شيئاً.. إن الله ذاته يشجعك على هذا السلوك..  
بل إن حكمة الخلق، لتكاد تُومئ إلى أن المحاولات التي نبذلها  
لكي نعرف - من أهم مقاصد الخلق..  
فما كان أيسر أن يكشف الله لنا أولاً؛ وبداءة.. كل أسرار خلقه..  
ولكنه تركها مُستسرةً مخبوءة، لنكشفها نحن بمحاولاتنا لنسأل:  
كيف.. ولماذا..! ثم نتابع السؤال والمحاولة حتى يأتينا اليقين..  
وخلال عملية المعرفة هذه لا نكشف المعرفة وحدها، بل ونكتشف  
أنفسنا معها..!!

\* \* \*

إن الإنسان حين استمسك بكلمة "كيف" وجعل منها أداة تطَّلَع  
ومعرفة، أنشأ العلم، وحلَّ الكثير من ألغاز الكون..  
منذ بدأ يقول "كيف" ..؟ وقلاع المجهول تستلم له قلعة وراء قلعة..  
كيف يسقط المطر..؟ وكيف تعمل المادة..؟ كيف ينتقل الصوت

والضوء..؟

أسئلة كهذه غيّرت مصيرَه، أو قولوا كشفت مصيره..  
وكلمة "كيف" كانت "الشفرة" التي خاطب بها المجهول..  
ولقد توصل بـ "لماذا" إلى حكمة الحياة..!!

ففى حياتنا العامة، وفى شئوننا العامة، علينا أن نتوسل دائماً بهذين  
المحركين القويين: إلى أين..؟ ولماذا..؟

أمام قوانين الجماعة، ونظمها - وأفكارها، والتيارات الظاهرة،  
والخافية فيها - قف، وتساءل: إلى أين، ولماذا..؟  
ناقش كل شىء.. وافهم كل شىء..

ولا تُرح نفسك من عناء التفكير فى المسائل العامة، فتلك الراحة  
موت مُحقق..!

وتجنب "الحياد" تجاه الواجبات العامة، والقضايا العامة..

فالحياد فضيلة، حين يكون موقفاً تجاه باطلين يتصارعان..

أما حين يكون الصراع بين حق وباطل، فلا حياد..

وكذلك حين يكون الحياد تخلياً عن مسؤولية دراسة الأوضاع العامة

ونقدتها - فإنه لا يكون حياداً مقبولاً..

بل يكون - كما قال بركليز - خيانة وهروباً..!!

لا بد أن يكون لك موقف أمين تجاه كل وضع، وكل مبدأ وكل

تطبيق..

ولا بد أن ينبعث هذا الموقف من روح تريد البناء، لا الهدم،

والتقويم، ولا التقويض..

ولا بد أن يكون هذا الموقف، موقفك أنت، فليس يغنى عنك شيئاً

أن يقول: إن الآخرين يعملون..  
 كلا - إن الحياة تريد عملك أيضاً.. تريد موقفك أنت.. ورأيك  
 أنت.. تريده حتماً وتريده بأسلوبك وبطريقتك..  
 تأكد من أنك تعطى الحياة بقدر ما تأخذ منها..  
 تأكد من أن الأفكار التي تغذى عقلك، هي خير الأفكار..  
 تأكد من أن القوانين التي تُسنُّ في بلدك إنما تُسن لصالح الناس..  
 ناقش جميع الذين معك، وحوالك..  
 ناقش نفسك، وحاكمك، وأستاذك، وأباك.. وإذا أنكر أحد عليك  
 هذا الحق، فأخرج له شهادة ميلادك، لتذكره بأنك إنسان!"  
 عندما تقدم من رسول الله ﷺ أحد الناس يقول له:  
 "إعْدِلْ يا محمد، فليس المال مالك ولا مال أهلك.."  
 همُّ به "عمر" لیسكت أنفاسه، فرده "الرسول" قائلاً: "دعه يا عمر..  
 إن لصاحب الحق مقالاً"!!  
 لم يكن الرجل صاحب حق، لأن "الرسول" لم يظلمه ولم يظلم غيره،  
 بل كان - عليه السلام - يجوع ليشبع الآخرون..  
 وإنما أراد "الرسول" أن يحمي حربة النقد، وأراد أن يشجع  
 الأدنى، على مناقشة الأعلى..!!  
 ولقد حَذَّقَ "عمر" الدرس، فحين وكى إمارة المؤمنين، واقترب منه  
 من يقول له: "أتق الله يا عمر"..  
 اعترضه أحد الصحابة زاجراً إياه وقائلاً له "أتقولها لأمير  
 المؤمنين"؟؟  
 هنالك قال عمر "دعه.. فالويل لكم إذا لم تقولوها والويل لنا إذا

لم نسمعها..!!"

ولكن ليس معنى "لماذا" أن تكون فُضُولياً متطفلاً مَقِينًا تقتحم من أسرار الناس وحرّما تهم ما ليس لك بحق..  
إنما هي أداة لفهم الأشياء والمسائل، فهماً يعينك على اتخاذ موقف صالح تجاهها..

وأداة لفهم الناس فهماً ليس الغرض منه تبين مواطن ضعفهم لاستغلالها ضدهم... بل الغرض منه مساعدتهم. والأخذ بأيديهم..  
كذلك، ليس معنى النقد أن تكون سليط النفس، واللسان.. وأن تصدر فيه عن رغبة شريرة في الإيذاء والكيد..  
إن الحياة لا تضيق بالنقد، لكنها تضيق بالحق. فأدِّ واجبك كناقِدٍ أمين، ومُحِبٍّ غَيُور..

\* \* \*

وانقُد - حين تنقُد - في حدود خبرتك ومقدرتك..  
ودعني أفصصُ عليك هذه الطُرفة، فإن لها دلالة نافعة..  
قالوا: إن رساماً شهيراً، آمن بجدوى النقد ونفعه، فكان يضع لوحاته خارج مرسمه لدى الباب، ثم يجلس خلفها في وضع غير منظور، مصغياً لآراء السابِلة..

وذات مرة، عبّر الطريق "إسكاف" عرفه الرسام من صوته.. وتملى الرجل اللوحة، وأبدى بصوت مسموع كمن يحدث نفسه بعض ملاحظات، صادفت لدى الرسام ارتياحاً، وقبولاً..  
قال الرجل: ما أبدع هذا الرسم، لولا أن عنق الحذاء أطول مما ينبغي..

وحين استرجع الرسام لوحته، أصلح عنق الحذاء..  
 وفي اليوم التالي أعاد اللوحة إلى مكانها خارج المرسم وجلس هو  
 في مكانه..  
 ومر "الإسكاف" كعادته.. وكم كان عجبه، إذ رأى عنق الحذاء قد  
 تقاصر كما كان يريد!!  
 هنالك أخذه الزهو ومضى يبحث عن عيوب أخرى..  
 وسمعه الرسام يهمهم قائلاً: "والصدر أيضاً" .. إنه بارز أكثر مما  
 ينبغي"!!

عندئذ برز الرسام من مكمنه وقال له:

- اسمع يا صديقي.. اسمح لي أولاً أن أشكرك على ملحوظة الأمس  
 واسمح لي ثانياً أن أقول لك: إن نقد الإسكاف، يجب ألا يُجاوز عنق  
 الحذاء!!

ليس هذا حداً من نشاط النقد الحر، ولا تهويئاً من شأن الناقد إذا  
 لم يكن ذا جاهٍ أو مكانة..  
 أبداً.. وإنما هو دعوة لاحترام أمانة النقد، وقصر آرائنا على  
 الجوانب التي تسمح لنا خبرتنا أن نُصدر فيها أحكاماً عادلة..  
 وهذه القصة. تمثل واجبا تلقاء نقد الحياة..  
 فلكل منا خبراته، ومجال معرفته، وعليه أن ينقد الحياة من خلال  
 خبرته؛ وتجربته، ومعرفته..

فالنقد يكون مجدياً، حين يجى من خبير عارف،  
 أما حين يكون مجرد ادعاء، وتقحم، فلا إذن فيه، ولا نفع له.

\* \* \*

وليس معنى النقد إصدار أحكام مطلقة. يضيع ما فيها لتحديد الحق من مغزى.. وليس النقد أحكاماً متطرفة تُحصى السيئة، وتجحد الحسنة.. ولا أحكاماً عشوائية، تُلقَى في غير تثبت أو اكتراث..  
 إنما النقد أمانة، وقضاء..  
 وله ما للأمانة ولل قضاء من حُرمة وتحوط..

\* \* \*

إن كل فرد في هذه الحياة، مدعوٌ لأن يحرك وجوده بأن يسأل، ويفحص، ويناقش، وينقد..  
 كل فرد ملزم بأن يحمي الحياة من العبث، ويقف منها موقف "حارس البرج" يقظان مستعداً..  
 وإذا كان حارس البرج، يتبين أشباح الظلمة بصيحاته: مَنْ هناك؟  
 فإن حارس الحياة يتعقب نفس الأشباح بسؤاله: "إلى أين؟"  
 "ولماذا" ..؟ فابعث من طوايا العزلة وجودك المستقبل الواعي، وأدِّ دورك، كما لو كانت الحياة لا تحيا بغيره !!  
 إن التبعية المستسلمة والانصياع الأعمى يُشكِّلان خطراً داهماً.  
 على تفكيرك، وعلى مصيرك..

بل وعلى مصير الجماعة التي تعتمد على رأى كل فرد من ذويها.  
 ولقد ضرب الله لهذه التبعية مثلاً في قرآنه الكريم، فقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا . وَرَأَوْا الْعَذَابَ ، وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا . لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِي ، فَتَنبَرُّوا مِنْهُمْ ، كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ ..!!  
 وإليك مثلاً آخر، يحذرك الله به من أن تفقد نفسك، واستقلالك



أمام من هو أكثر منك قوة، أو أرفع جاهًا..  
إذ يقول سبحانه:

- ﴿وَإِذَا يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ. فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: إِنَّا  
كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا، فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾..؟  
﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: إِنَّا كُلٌّ فِيهَا: إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ  
الْعِبَادِ﴾..!!

أجل.. إن الله قد حكم بين العباد، فإذا سكت الناس عن حق ينتظر  
مُسَانِدَتَهُمْ إِيَّاهُ، أو جَنُّوا أمام باطل، يستحق دَحْضَهُمْ لَهُ.. فإنهم جميعًا  
يُنَادُونَ إِلَى الْقِصَاصِ وَيُدْفَعُونَ ثَمَنَ سُكُوتِهِمْ، وَهُرُوبِهِمْ..!!

\* \* \*

إن الحياة تدعوك مُلِحَةً؛ لِتَعْلَنَ فِيهَا رَأْيَكَ.. فتقدم.. وادرس..  
وناقش..!!

إن أكثر معجزات تقدمنا الإنساني، إنما بدأت بلفتة ناقد أمين..  
والحياة الإنسانية لا تريد لأعضائها أن يعيشوا عُمِيًّا، ومعهم  
أعينهم.. وَبُكْمًا، ومعهم ألسنتهم.. وَصُمًّا، ومعهم آذانهم..  
وإنها لتبارك علامات الاستفهام البشرية، وتفتح لهم ذراعيها..!!  
فكن "عَلَامَةً اسْتِفْهَامٍ" دائبة التنقل بين الأشياء حتى تفهمها، وحول  
المشاكل حتى تجد لها حَلًّا، أو تُسَهِّمَ مع الذين يبحثون لها عن  
حلول..

وامض في حياتك بصيرًا .. عارفًا..غَيْرَ أَعْمَى .. وَغَيْرَ مَخْدُوعٍ ..!!



www.alkottob.com

## الوصية السادسة

عش صديقاً طيباً  
وليكن "اسمك" نداء النجدة للمكروبين..  
وليكن "قلبك" مرفأ الراحة للمتعبين..



www.alkottob.com

من مادة لغوية واحدة، جاءت كلمتا.. "صدق" و"صداقة" وكلمتا  
 "صادق" و"صديق" ..!!  
 والصداقة، التي هي أعلى منح الحياة، تمتزج امتزاجاً كاملاً  
 بالصدق الذي هو أسمى فضائل الحياة.  
 وقديماً، لم يأسف "سقراط" لشيء، مثل أسفه لعدم اهتمام الناس  
 بالصداقة..!!  
 ومنذ عهد "سقراط" إلى يوم الناس هذا، مرّ بالحياة كثيرون من  
 الذين قدسوا الصداقة، وكثيرون من الذين أبقوا منها، وعاثوا فيها  
 فساداً..  
 ولكن، مع المستوى العام للتقدم الإنساني، تسير الصداقة مُجتازةً  
 أضغان الأنفس؛ محققة لنفسها انتصاراً وتقدماً..  
 وتحثفي الحياة - أول ما تحثفي - بالذين يرعون الصداقة، ويسقون  
 شجرتها المباركة..  
 فهل أنت واحد من هؤلاء...؟؟  
 دعني أولاً اذكرك بأنك لا تعيش في الدنيا وحدك، وأن العزلة  
 محال..!!

فمهما تحاول أن تنطوي على نفسك، أو تعتزل الناس، فإن لك  
بالآخرين ارتباطات، ظاهرة، ومخبوءة، تربطك بهم، وتجمعك وإياهم  
فى لقاء..!!

حين تجلس - مثلاً - فى خلوة، تطالع كتاباً، وتحمد العزلة التى  
أنت فيها، أظن أنك - ساعتئذ - فى عزلة..؟  
أبدأ.. فهذا الكتاب الذى يمينك "سنترال" يصلك بعددٍ كثير من  
الناس من غير أن تدرى..

فهناك مؤلف الكتاب يعيش معك. ويؤثر فىك، وهناك الذين تأثر بهم  
المؤلف نفسه، وأثر بعضهم فى بعض - تنتظمهم سلسلة طويلة، ورثل  
طويل..!!

حيثما وليت وجهك، تجد الحياة تواجهك، وتتابعك بعلاقات  
كثيرة..

فى عملك زمالات، تعرف منها وتنكر..  
فى الطريق، فى "المترو" تلتقى بناس تبصرهم، وينظرون إليك،  
وتترك نظراتهم العابرة فى نفسك من مشاعر الرضا ومن مشاعر السأم ما  
تحب، وما تكره..

بل فى بيتك؛ ومع أسرتك، ينقل إخوتك وأبناؤك إليك، أصداء  
علاقاتهم بآخرين لا تعرفهم..

هكذا يأتىك الناس فى صورٍ شتى، ويتسللون إلى حياتك، راضياً،  
أو كارهاً..

وفى دوامة الحياة الكبرى، تلاقى وجوهاً، وتُصافح أيدياً، وتُزاحم  
مناكب، وتُنشى علاقات لا أول لها ولا آخر..

ومن ثمّ، كان تحديد صلتك بهذه الدوامة أمراً ذا بال فى حياتك ومصيرك..

وعلاقات الناس بعضهم ببعض، تُرسمها وتحددها أكثر من جهة.. فهناك القانون، وهناك الضرورة. وهناك العُرف.

ولكن خلال الرحلة الإنسانية الطويلة، اكتشف الإنسان أعظم مكتشافته فى هذا السبيل - وكانت الصداقة..

أجل - إن الصداقة، هى قمة التطور الذكى السوى، للعلاقات الإنسانية بأسرها..

وإذا كان الناس مُدَّ وُجِدُوا يكافحون الفقر، ويهربون من شقائه..

فاعلم أن شر صنوف الفقر؛ هو فقر الأصدقاء..

أجل.. ليس انعدام الثروة وحده هو الفقر.. بل إن انعدام الصديق؛

يمثل لوناً كائياً من ألوان الحرمان والمجاعة..!

\* \* \*

لا تُصدق أنك تستطيع الحياة بغير أصدقاء.

ولا تصدق اليأس حين يُلقى فى روعك أن الصداقة أسطورة.. وأن

الناس - جميع الناس - ذئاب..!

وليس عليك؛ لكى تكتشف مزايا الصداقة؛ وحثميتها، ولكى تعلم

أن الأصدقاء فى الدنيا كثيرون:

ليس عليك لتبلغ هذا؛ إلا أن تبدأ أنت، فتكون صديقاً؛ جرّد من

نفسك قاضياً على نفسك؛ وأدئها؛ قبل أن تقف من الآخرين قاضياً

وذيّاناً..!!

فإذا بدا لك منها قُصورها، وتقصيرها..

وإذا تبينت أنه ينقصك الكثير من خصال الصديق وسماته.. فاعلم أنه من هنا غمّت عليك رؤية الصداقة ورؤية الأصدقاء، وابدأ بنفسك. وكن صديقاً طيباً..

وابدأ هذه البداية، بأن تعرف، ما الصداقة..؟؟

\* \* \*

الصداقة سلوك تُعبّر به النفس عن حاجتها إلى نظير..  
وهي "مشاركة" خالصة بين اثنين أو أكثر؛ على مستوى عالٍ من النبل، والتفاهم، والإثارة..  
وهي ليست "اتفاقاً تجارياً" بين اثنين.. بل هي "ميثاق" بين قلبين، وحياتين، وإنسانيتين رفيعتين..

وكما تبذل جهوداً عظيماً؛ لكي تظفر بإجازة عامية كبرى، عليك أن تبذل جهوداً مماثلة، لكي تظفر بصداقة..!

إن جهلنا بحقيقة الصداقة، يحرمنا من مباحها الباقية..  
فنحن نحسبها مزاحاً ما جناً.. أو نفعاً متبادلاً.. أو وُصولية زائفة..  
نحسبها "لقاء" حول مائدة قمار، أو تواصلًا بأذى، أو سعياً مشتركاً وراء غرض خبيث..!!

كما نحسبها تبعية، ينماع فيها أحد الصديقين ليصير للآخر مجرد ظلّ، ورديف..!!

نحسب الصداقة كذلك.. وأسوأ من ذلك.. وتقيم علاقاتنا الناشئة عن هذا الفهم المغلوط على شفاهاوية..

حتى إذا زلت الأقدام، وهوت من تحتها الأرض الرخوة صرخنا قائلين: يا أسفاً على الصداقة.. ويا ضيعة الأصدقاء..!



ولو فكرنا قليلاً لعلمنا أن الذى كُنَّا فيه لم يكن صداقة. وإنما كان ضرباً من التسلية الفارغة، والنفعية المرذولة، واللقاء التلقائى...!!  
أما الصداقة الحقة، فهى أبقى على الزمن من الزمن نفسه..  
فإذا شئت أن تكون صديقاً، وتنعم بالأصدقاء، فأدرك حقيقة الصداقة جيداً؛ وهى نفسك لحمل تبعاتها النبيلة، وضَع نفسك على الغرار الذى تتطلبه الصداقة..

ويومئذ، لن تندب نُدرة الصُّحاب؛ لأنك ستجدهم كثيراً مُباركين..!!  
ولن تشكو غدر الأصدقاء، لأنك ستجدهم أوفياء مؤثرين..!!

\* \* \*

زود نفسك بفضائل الصداقة، وَعَبَّئْهَا بهذا المدد الكبير من الحب والخير، ونَمِّ فيها نزعة الإيثار حتى تتسع وتتراحب لا لإيلافِ الناس جميعاً..

كن صديقاً لمن تعرف.. ولمن لا تعرف..

افرح لكل فوز شريف، يناله إنسان - حتى إذا كنت لا تعرفه..

وتَهَلَّلْ لكل خير ينزل بساحة إنسان - حتى إذا كنت تجهله..

وأَسْهِمْ فى حل مشكلات الذين يدفعهم إليك الأمل فيك.. حتى لو

لم تربطك بهم رابطة دانية..

وتألم فى نُبلٍ للأسى الإنسانى، حيث يكون..!!

اجعل من نفسك "مرفأ" تأوى إليه الزوارق التائهة التى زلزل

الإعصار والموج ثباتها..

وليكن اسمك - مجرد اسمك - كنداء النجدة.. لا يكاد المفزعون

يسمعونه حتى تسكن ضلوعهم الواجفة، وتعود إليهم طمأنينتهم

## الضائعة..

لا تحسبني بهذا مبالغاً في رسم صورة الصديق..  
 فالصداقة استعداد، هذه أوليات سماته..  
 والإنسان الذي لا تكون نفسه مهياً للخير العام عامرة به، هيئات أن  
 تواتيه القدرة على أن يكون صديقاً، ولو مرة واحدة!  
 فالصديق رجل كبير، لا يعرف قلبه الحقد، ولا يعرف ضميره عدم  
 الاكتراث. ولا يضمن على الناس كافة بما معه من رحمة، وحنان، ونجدة.  
 والصديق "قارة" كبيرة يجد النازلون بها رَحْباً، وسعة وألواناً شتى  
 من المباحج والفرص الحرة الكريمة..  
 والصديق، لا تنعكس فضائله على الذين يعرفهم فحسب.. بل على ما  
 حوله جميعاً.. كالشمس ترسل دفتها وضيائها لكل ما هنالك من حياة،  
 وأحياء، وأشياء..!!  
 تفيض بغير حساب، وتعطي في غير مَنْ، وينال خيرها مَنْ تفصلهم  
 عنها مسافات، وأبعاد، وعوالم..  
 وكما أن الشمس لا تستطيع أن تقصر دفتها وضوءها على قوم،  
 وتحرم آخرين..  
 وكما أنها لا تفرق بين أحد ممن تعطي..  
 وكما أن العطاء العميم الشامل، هو طبيعتها، وشيمنتها..  
 فكذلك الصداقة تماماً.. لا تقف بها علاقاتها الخاصة.. عن  
 انطلاقاتها العامة.. ولا تشغلها النجوى مع الأقربين عن عبور المسافات  
 الطويلة، باذلة خيرها، ناشرة عبيرها..  
 إن كثيرين من الذين دأبوا في ظلمة الليل، ووفدة الحر، على كشف

دواء يشفى المرضى، أو اختراع يبسر للناس وطأة العيش، ويُدلّل لهم طرائق الحياة - إنما كانوا مدفوعين برياح الصداقة العميمة للبشر جميعاً..

ولقد عبّر أحدهم عن المستوى الشامخ الرضيّ من الفهم حين قال مخاطباً زوجته: "دعيني أعمل من أجل أصدقائي الذين لا أعرفهم" ..!!

\* \* \*

ذات يوم، ورسول الله ﷺ، جالس مع أصحابه، رنا بصره الحانى، صوب الأفق البعيد فى هيام ووجد، وقال:  
- "يا ليتنى قابلت إخوانى" ..!!

فسأله أصحابه: يا رسول الله، ألسنا إخوانك..؟؟

فأجابهم: "بل أنتم أصحابى.. ولكن إخوانى، قوم يأتون بعدكم.. يؤمنون بى كإيمانكم.. ويحبوننى كحبكم من غير أن يرونى، فياليتنى قابلت إخوانى" ..!!

انظر، كيف اتسعت دائرة الشعور بالإخاء، وبالصداقة، حتى أدركت العوالم الوافدة من البشر، والأجيال التى تفصلها حواجز الأحقاب والقرون..؟؟!!

ذلك أن "محمدًا" عليه الصلاة والسلام، كان يحمل الاستعداد الكامل للصداقة الكاملة..

والاستعداد فى هذا المستوى، يكون كما أسلفنا كالشمس.. إنها قائمة ترسل الدفء والضياء، فمن تعرّض لأشعتها اغترف منها، ونعم بها.

كذلك الذين وهبوا فضيلة الصداقة..

علاقتهم الشخصية لا تمثل كل المجال الذي تنشط فيه عواطفهم الطيبة.. وإنما تمثل نقاط التقاء، أزوجتها ظروفها..

إن "السنترال" الكبير، ينتظم آلافًا من خطوط الاتصال التليفونى! فإذا عملت منها ألف واحدة، فليس معنى ذلك أن طاقة "السنترال" هى هذه الألف وحدها.

كلا.. فهناك طاقة كبرى ترعى آلافًا أخرى من الخطوط تنتظر توصيلها..

كذلك الصداقة الصادقة، تتسع لكل قلب يريد لها وتعطى من وُدّها الصافى عطاءً من لا يخاف خصاصةً أو فقرًا..

\* \* \*

نمّ هذا الفهم وهذا الحس فى نفسك.. وأقبل على الناس بروح صديق..

وإذا التقيت بالذين ستجمعك بهم صلة الصديق القريب المباشر؛ فضع فى عزمك أن تكون خير الصديقين..

هناك وصية للرسول تقول: "كن خير ابنى آدم" ..

أى إذا اجتمع اثنان، وكنت أحدهما، فكن خيرهما..

إن معظمنا يطبق هذه الوصية بعد أن يقبلها، ويجعلها تقف على رأسها..!!

فحين تجمع ظروف العمل أو الحياة بين اثنين منا، يجتهد كل منهما أن يكون خيرًا من الآخر، مظهرًا، وأرفع منصبًا، وأكثر وجاهة. وكبرياء، وغطرسة..!!

ليس هذا، ما تريده الوصية الكريمة: "كن خير ابنى آدم" ..

إنها تريد أن تسبق الآخر فى الإيثار، والتواضع، والبر، والوفاء..  
 كان جماعة من الصوفية فى سفر، وعند المبيت، أقبل أحدهم  
 يسألهم عن غطاء اشتراه للسفر وأعدّه للرحلة فقال: "أين غطائي"؟؟  
 فدهشوا.. وقالوا "غطاؤك"؟؟ أو لك غطاء، ولنا غطاء؟؟  
 اعتزلنا..!!

لا أقول: إن هذه قاعدة عامة لسلوك عام.. لكنها إيماة إلى اللباب  
 الذى تنطوى عليه كل علاقة إنسانية صادقة - حيث يختفى التمايز  
 ويفقد "ضمير المتكلم" حقه فى التوكيد على نفسه، وتنادى الصداقة  
 دُوبها وأهلها، إلى مُباراة نبيلة فى الإيثار والمكرمات..!!  
 كن خير الصديقين إذن، ولن تخسر شيئاً، بل ستجنى أشهى ثمرات  
 الوجود..

واجعل أساس الصداقة بينك وبين من تصادق - العلاقة الطاهرة التى  
 تحدها أسمى البواعث، ولا تلوثها الأطماع الهزيلة..  
 واختر أصدقاءك..

بقدر ما يكون توكيرك للصداقة، سيكون اهتمامك باختيار الصديق..  
 لقد قال الرسول ﷺ: "المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من  
 يُخالل" ..

إن اختيار الصديق يُشكّل فى حياتك أهمية بالغة؛ ذلك لأن كلاً منّا  
 تنقص حياته جوانب، كان يتمنى إدراكها..  
 وكل منّا، كان يود لو استطاع أن يختار حياته.. يختار فضائلها،  
 ويختار ظروفها..

أما، وذلك غير ممكن، فإننا نلتمس العوض عند الأصدقاء، فنختار

منهم الذين نستطيع أن نستدرك بهم ما فات حياتنا من فرص الخير والتفوق..

ذلك أن الصديق، بحياته، وبفضائله، يصير امتداداً لك، وتتمّة لك..  
وإن حياتك لتتأثر به، وتنعكس عليها كل مناقبه ومزاياه..  
فإذا اخترته، وأحسنت اختياره، كنت كأنك اخترت حياتك من أولى لحظاتها..!!

فمزاياه التي تنقصك، تصبح ملكاً لك..  
والفضائل التي ضاعت منك في زحام الحياة، تعود إليك مع هذا الصديق..!!  
والحياة السابقة التي كنت تود أن تحياها، وتكونها، تقترب منك،  
إذا اخترت صديقك على غرارها، ومن طرازها..  
وهكذا، فالذي يحسن اختيار أصدقائه، يضع يده على الحظوظ الوافية..

إن الصداقة، هي المرفأ الذي ننزل بساحته الآمنة بعد رحلة فيها مشقة وكبد..

وهي البهجة التي تزودنا بالقدرة على مغالبة الصعاب..  
وهي ضوء الفجر الذي يذكرنا بأن الحياة تجدد نفسها دوماً،  
وتبعث بأنفاسها العاطرة إلى الرُقود المتعبين، فيخفون سراعاً  
ناشطين..!!

\* \* \*

عندما أرى صديقين ودودين، يتبادلان النظرة الحانية، والكلمة الدافئة، ويتألق صفاء الأنفس على وجهيهما في مثل سنى اللؤلؤ..

أقول لنفسي: انظر.. إن الحياة فى عيد..!!

\* \* \*

وقد تسألنى: كيف أختار صديقى..؟

وأجيبك قائلاً: استفت قلبك.. فأنت أدرى الناس بالصديق الذى تريده.. ولكن لا ينبغي أن تسمح للرغبات الرخيصة أن تستهويك مظاهرها، أن يضلّك زيفها.

فاختر صديقك فى ضوء الإنسانيات الرفيعة.. فى ضوء القيم العليا التى لا يهبنا الخير مثلها، ولا يرفعنا عالياً سواها..!!  
ليس معنى هذا، أن تنشُد ملاكاً يخطئ؛ فأنت فى أرض الناس؛ ولست فى سماوات الملائكة..

إنما اهتداؤك بالقيم والإنسانيات الكريمة؛ سيتيح لك التعرف بأقرب الناس رُحماً إلى الخير والنبيل..  
لا تختَر الصديق لشرائه، ولا لجاهه..

فالحياة كثيراً ما تسخر من أصحاب هذا الاختيار، بأن تُخبئ لهم فى الطريق خيبة أمل عريضة، تفاجئهم بها فى قهقهة وشماتة..!!  
إنما عليك أن تختار الصديق لشراء روحه، وجاه خِصاله وأناقته نفسه، ووثاقته خلقه، وتماسك بنيانه..!!

لا تختَره مهذاراً ثلاباً يُسلِّيك على الناس؛ فهذا الذى يهبط بحياتك إلى أدنى الحضيض..

والذى يقول اليوم "لك" فيضحكك. سيقول غداً "عنك" فيبكك..!!  
لا تختَره حاقدًا.. شعار حياته "سُحْقًا للناجحين"، فإن العواطف مُعدية، وصحبتك لهذا التعس، تجعلك مثله تعسًا..

لا تختره من الذين يرون الحياة لهواً، ولعباً، وسيجاراً، وكأساً. فإن الحياة فى صحبة هؤلاء، تتحول إلى نفاية وبياب..!  
بل اختر الصديق الذى يرى فى نجاح الآخرين، نجاحاً له وحسن ثواب..

اختر دافى اللسان، عَفْ النفس، رِيَان الضمير..  
اختر من لحياته قيمة بما يبذل من جهد، وبما يلتزم من واجب، وبما يمارس من دور عظيم..  
فإذا اخترت أصدقاءك، فاذكر كلمة "هويتمان": "إن وراء كل ظفر يتحقق، حاجة إلى الجهاد أشد وأعظم" ..  
أجل، عندئذ قل لنفسك: لقد وجدت الأصدقاء، والآن على أن أحتفظ بهم..

لا تكن كالذى ينقض عَزْلَه، ويبنى ليهدم..!  
إن الصديق القويم، هو الجزء الغائب من حياتك، فإذا أعثرَكَ الله عليه، فاجعل من تمام شكره أن تحتفظ بهذه النعمة، وترعاها، ولا تدعها تفلت من بين يديك..  
إن الصداقة فى مجتمعنا رخيصة، وليس أهون علينا من التفريط فيها وعدم الاكتراث بها..  
فتفوق على هذا السّفه، وكن واحداً من الذين يَرُدُّون الأمور إلى رُشدِها ونُهاها..!!  
ولكى تحتفظ بأصدقائك..

- ابذل من وفائك بغير حساب.. فالوفاء لا ينقض بالبذل وإنما ينمو ويزيد.. ولا تظن أن الوفاء مقايضة.. فهو يُولم لك، فتولم له.. وهو



يهدى إليك. فتهدى إليه.. وهو يزورك، فتزوه..

إن هذه مع أهميتها قشور، إذا لم تُفَعْمُ بواطنها بروح الوفاء..  
وروح الوفاء، معطاءة دائماً. ومهيأة باستمرار لإرسال فيضها  
وسناها. لا تسأل: إن كان الذى ستدثره بسموها. يستحق أو لا  
يستحق.. لأنها تعبر عن نفسها. وتتنفس طبيعتها الفاضلة.. واذكر أن  
الصديق شخص آخر له شخصية، وله كيانه.. فلا تحاول أن تجعل منه  
تابعاً لك.. لا تحاول أن تفرض عليه رأياً لا يقتنع به، أو سلوكاً لا  
يريده..

وحتى إذا كنت متفوقاً عليه فى بعض مزايا الخلق، فلا يحملنك  
ذلك على دمجك فيه، وصوغه على غرارك..  
لَوْحُ بفضائلك أمام روحه فى رفق.. ودعها هى تقترب منها، وتختبر  
طريقة الأخذ عنها..

أما أن تحاول تغيير طباعه طرفة، فهذا أقرب الطرق إلى أن تخسره..  
إننا نخسر الزهرة، إذا تعجلنا نموها، فقطعناها..  
أما حين نتركها فوق ساقها وجذرها، تمتص عن طريقها من الأرض  
الحياة، فإننا نسمع صوت نموها فى غبطة وأمل..!

كذلك صديقك، لا تتعجل نموه بفصله عن ذاته، وإلحاقه بذاتك  
أنت، مهما تكن فاضلاً، ومتفوقاً.. بل ساعده على توثيق عُرَى وجوده،  
وإزجاء الظروف الطيبة التى تسمح لفضائله بالازدهار..

اذكر دائماً أن الصداقة مشاركة، لا تلاشٍ، ولا ذوبان..  
وليس من عمل الصداقة إزالة التخوم الطبيعية القائمة بين شخص  
وآخر..

إنما مهمتها ألا تتحول هذه التخوم إلى "خطوط قتال" بل ولا إلى "خطوط هدنة" .. إنما تظل حدوداً مشتركة، وأرضاً جامعة تترعرع فوقها صداقات عِدَّة، وعلاقات طيبة، وتؤتي كلُّ روح هداها..!!  
- ساعدُ صديقك على أن يُهرَعَ إليك بأسراره وهو مطمئن..

فنحن جميعاً تمر بنا تلك الأوقات التي ننوء فيها بأثقال أنفسنا، ونبحث عن الإنسان الأمين الذي نستطيع أن نفرغ أمامه همومنا، ونخرج له خبء أنفسنا، ونكشف له كل ذواتنا الباطنة، وشعوننا الخاصة. ونفتح له أبواب مملكتنا التي لا يعرف أسرارها أحد سوانا..  
وحين يُسرُّ إليك أحد بخاصة أمره؛ فهو في الحقيقة يدعوك لتحمل عنه بعض همه.. فكن نبيلاً، واجعل لسر صديقك حرمة وقُداسة تنأيان بك عن كل تفريط في صونه وكتمانه..

إن حفظ السر أصدق دلائل الرجولة، والقوة..  
والإنسان الذي يضع أسرار الآخرين على طرف لسانه الثرثار لا يساوى وجوده، رسم "شهادة الميلاد" التي لا يملك من مظاهر الحياة سواها..!!

- والصدقة، كالكائن الحي، تحتاج دوماً إلى غذاء وريٍّ. فلا تسلم علاقتك الودودة للفتور أو الشك..

تعهّدها دائماً كما يتعهد البستاني الحاذق زهور الحديقة وثمارها.. اسقها بالكلمة الحلوة، وباليسمة الحانية، وبالنظرة الصافية، وبالمجاملة الصادقة، وبالمشاركة النبيلة، وبالثقة الوطيدة..

- والصدقة خلطة دائية ودائمة، وكل خلطة بين اثنين عرضة للعثرة، وسوء الفهم..

فَوَطِّدْ نَفْسَكَ عَلَى النِّسْيَانِ وَالصَّفْحِ، وَلَا تَجْعَلْ أَعْصَابَ الصَّدَاقَةِ  
مَشْدُودَةً مَتَوْتِرَةً..

وَطَّنْ نَفْسَكَ عَلَى أَنْ تَكُونَ لِلْمَعَاذِيرِ عِنْدَكَ حَرَمَةً، وَلِلْعَثْرَاتِ مِنْ  
تَسَامَحِكَ نَصِيبًا..

وَإِذَا اعْتَذَرَ صَدِيقُكَ عَنْ خَطَا أَسَاةٍ، فَتَقَبَّلْ اعْتِذَارَهُ بِطَرِيقَةٍ تُنْسِيهِ  
خَطَاةً.. وَلَا تَلْجُ عَلَيْهِ فِي تَذْكِيرِهِ بِخَطْئِهِ، وَلَا تَكُنْ فِي عِتَابِهِ لَجُوجًا..

هناك وصية حكيمة قالها الرسول عليه الصلاة والسلام: "من أتاه  
أخوه مُتَنَصِّلًا - أي معتذراً - فليقبل منه، مُحِقًّا كان أو مُبْطَلًا.."

بالله ما أروعها هذه العبارة الفاصلة: "محققاً، كان أو مبطلاً"!  
ذلك أن الاعتذار، يتضمن الاعتراف بالخطأ، ويتضمن الرغبة في

مغفرته..

فالذي لا يستجيب وجدانه لمثل هذه المواقف استجابة كريمة لا  
يكون إلا صاحب إنسانية متخلفة؛ تتسم بالبلادة والجفاف..!!

- والصدقة اهتمام حافل بالرغبة في الخدمة، وإسداء العون. فلا  
تحمل همومك إلى صديقك، ثم تعطيه ظهرك حين يحمل إليك همومه..

لا تُطالبه بالتفكير من أجلك، وتُخطئ نفسك، ثم تنصرف عنه حينما  
يحدثك عن نفسه.. ولا تعامله كطفل، فتجامله مجاملة تستر عنه أخطاء

- يجب أن يتبينها، أو تشبع فيه غروراً - يجب أن يتخلى عنه..

لا تخذل طموحه العادل، ولا تشبط همته الواثبة..

ولا تتخلف عن نصرته حين يستنصرك؛ ولا تجعله يفقدك حين

يحتاجك..!!

هناك نوع من الناس، لا يمكن الاعتماد عليهم، إلا حين لا تكون

ثمت حاجة إليهم..!!

فلا تكن واحداً منهم، ولا تتخذ لنفسك صديقاً من بينهم. فعظمة الصداقة، أنها تحمل مسؤوليات لا تفرضها قرابة ولا دم..

وإنها لتحملها في غبطة تجل عن النظر..

ضع عينك على محاسن صديقك دوماً، وتحدث معه بشأنها،

وامنحها ما تستحقه من تقدير وتوقير..

وبعد.. فإن كل ما كتبتك لك هنا عن الصداقة؛ لخصه وربما زاد

عليه؛ إمام جليل من أئمة التصوف والهدى..

ذلكم هو "السرى السقطى" رضى الله عنه..

أتحب أن تعرف ما قال..؟؟

إليك عبارته التي لم يُقل في الصداقة؛ أجمع؛ ولا أمتع، ولا أوجز

منها..

ها هي ذى : "لاتتم المحبة بين اثنين؛ حتى يقول أحدهما للآخر:

يا.. أنا"!!!

ولعل من الخير؛ أن نجعل هذه العبارة المضيئة ختام حديثنا عن

الصداقة.

وإنه لختام حافل..

وإنه لينعم الختام..!!!



## الوصية السابعة

اقرأ في غير خُضُوع ..

وفكّر في غير غرُور ..

واقتنع، في غير تعصُّب ..

وحيث تكون لك كلمة، وأجبه الدنيا بكلمتك !!!



www.alkottob.com

لن تستطيع أن تكون إنساناً متطوراً، نامياً، مستنيراً، حتى تستعمل عقلك جيداً..

وفيما حولك، تكمنُ معارفُ ثروةٍ وحقائقُ كبرى - تنتظر العين التي ترى، والأذن التي تسمع، والبصيرة التي تفقه..

والفارق بين إنسان يحيا الحياة، وتحيا فيه، وإنسان آخر يسمونه "ميت الأحياء" .. الفرق بين الاثنين ليس في بهاء المظهر، ولا في تراكم الثروة، ولا في "شجرة العائلة" ..!

إنما هو في ثراء العقل، والروح، والخُلُق..!!

والكون - كتابُ ربنا - مفتوح لكل ناظر، ميسرٌ لكل قارئ..!!

ومن الأفضاذ الذين نرفع نحوهم أبصارنا في خشوع كثيرين أخذوا معظم ثرائهم العقلي والروحي، من هذا الكتاب الكبير..

نظرتُك إلى السماء ونجومها.. إلى الأرض وزرعها.. إلى البحر.. إلى النهر.. تأملك الناس، والأشياء.. لحظات الصمت المفكر التي تستغرقك فيها سباحات روح طُلعة.. كل هذه أضواء تتيح لعقلك أن يكون نافذة قيمة على الحياة..!!

والكتاب المطبوع؛ مرِقاة كل إنسان حتى إلى الكمال والتفوق.

والذى لا يُحْيِي عقله بالقراءة المستمرة، يستحق العزاء،  
والرثاء..!!

فإذا كنت من الذين يقرءون، فُهْنِي نفسك، وطالبها بمزيد..  
وإذا لم تكن؛ فأدرك مكانك فى القافلة؛ قبل أن تذهب نفسك  
حسرات..!!

إن الكلمة المطبوعة، من أئمن ممتلكات الإنسان، وخير ما أخرجت  
الحضارة الإنسانية للعالم..

وصحبة الكلمة المطبوعة، هى الحظوظ الوافية..  
ولو خلّت الحياة من نعمة القراءة والفكر - لكنت عيبًا لا يُطاق..  
هل تعرف أول كلمة تلقاها الرسول من ربه..؟؟  
"اقرأ .." !!

إنه رسول، عابد.. رسالته وعمله، دعوة الناس إلى الإيمان بالله  
وعبادته..

ولو أننا تصوّرنا أحق الكلمات بأن تكون بدء الوحي إليه؛ لتصورنا  
أن تكون: صَلِّ .. أَعْبُدْ .. آمِنْ..

بيد أن الذى حدث أخلف الظنون، وبهر الألباب..!!  
إذ كان أول تكليف تلقاه الرسول ﷺ من ربه، هى القراءة.. وأول  
كلمة أُلقيت عليه، هى: اقرأ..!!

إن الله سبحانه، يعلم بداية المعراج الذى يُفضى بذويه إلى القمم  
الضاربة فى الأفق الأعلى..

يعلم نقطة البدء والانطلاق نحو كل عظيم، وغرض جليل، ولقد أراد  
أن يدلنا عليها بهذه الكلمة التى استهل بها الوحي إلى رسوله الكريم،



فقال: اقرأ..

والحق أنه وراء كل عظيم - ولست أقصد بالعظمة هنا ذلك البذخ أو الامتلاء بماديات الحياة الدنيا - إنما أعنى العظمة الحققة التي تجعل من صاحبها مَعْلَمًا من معالم الرشد الإنساني..  
أقول: وراء كل عظيم، حشدٌ كبير من الكتب التي قرأها وأعمل فيها فكره الوثيق..

وحين تتبّع سيرَ عظماء البشرية، تجد الشغف بالقراءة كان السُّمة المميزة لطفولتهم، ونشأتهم الأولى..

لم يكونوا - على الرغم من حداثة سنهم يبحثون عن الكتب التي يطالعونها؛ بل كانوا يهتدون إليها بسليقة ذكية.. كأنما كانوا مع هذه الكتب على موعد.. كأنما طالعوا "فهارس" المعرفة، وهم في أرحام الأمهات، وجاءوا الحياة مزودين بسجلٍ يحمل أسماءها..!!

\* \* \*

ترى هل أنت من القارئین، الذين يحرصون على أن يعرفوا كل يوم شيئاً جديداً..؟؟

إنك - بوصفك إنساناً - مُطالبٌ بأن تقرأ كثيراً، وتفكر كثيراً..  
وبوصفك من سكان القرن العشرين، مطالبٌ بهذا أكثر من أبناء القرون الخالية..

فالحياة اليوم تتفاهم مع الأحياء بلغة فُصْحَى..  
أعنى أنها تتعامل معهم في مستوى رفيع وبعيد، من المسؤولية والتجارب..

والذين يُسايرونها من مستويات أدنى - لا يحسنون صنْعاً، ولا

ينالون منها إلا النفايات..

لهذا، أقول لك: اقرأ.. وقرأ.. وقرأ دائماً!!

فالقراءة هي النور الذي يسعى بين يديك.

وهي الرثة، التي تَنشَقُّ بها الحياة..

والكتاب، كما قيل، خير جليس. وخير أنيس..

ودعني أسألك سؤالاً..

لو استطاع العلم أن يرد إلى الحياة بعض الناس لبعض الوقت،

وأذيع - مثلاً - أن سقراط، وأفلاطون، والغزالي، وشكسبير،

والمعري، وتوم بين، وروسو، وفولتير، وابن رشد، والفارابي، وهيكل،

وماركس، وجيته؛ وأرسطو - سيكونون يوم "كذا" في مكان ما من

العالم.. وخلال الفترة التي سيقضونها أحياء سيستقبلون زائريهم،

ويتحدثون إليهم، ويجيبون عن أسئلتهم..

أفلا تتركب إليهم تَبَجَ البحر، ومخاطر الجو، وتنفق من ثروتك

بسخاء، كي تبلغ مكانهم، وتجلس إليهم...؟؟!!

ألا فاعلم أن العلم قد ردهم إلى الحياة فعلاً. وأنهم وجميع

إخوانهم المفكرين، جالسون هناك.. ينتظرونك في كل وقت.. وفي

أقرب مكان.. وبأيسر نفقة..!!

أجل - في أي مكتبة من المكتبات المبتوثة تلتقي بهم في مؤلفاتهم..

لقد اخترع العلم الطباعة، وصنعت الطباعة الكتاب، وخلدت بين

دفتيه أعظم تراث للبشرية كلها؛ وهو الفكر..

واعلم أيضاً - أنك حين تجلس مع كتاب لأفلاطون، أو شكسبير، أو

ابن خلدون؛ فأنت في الحقيقة إنما تجلس مع هؤلاء في أصفى ساعات

حياتهم: وتفوز منهم بمغانم قد تفوق مغانمك لو كنت تجالسهم  
أحياءً..!!

ذلك أنهم في مجالسهم العامة. يُعطون ما عندهم مُرتَجلاً ومُختلطاً..  
أما حين كانوا يجلسون للكتابة، فقد كانت عقولهم آئذٍ في مستوى  
رفيع من الاستعداد، والتألق، والتفوق..

وكانوا يغيرون، ويخورون حتى تخرج الفكرة التي يعالجونها،  
ناضجة، وافية، باهرة الأسلوب..  
وهكذا كل كاتب تقرأ له..  
إنك إذ تقرأ له؛ تجالسه وتزامله في أصفى وأملأ ساعات حياته  
وإنتاجه..

ومؤلف الكتاب الذي تطلعه - حاضر معك إذ تقرأ، يتحدث إليك  
من خلال السطور المطبوعة بخير ما أُوتى من قدرة على التفكير،  
والتعبير..

تُرى أي الأمرين خير وأبقى..؟؟

جلوسك في "مقهى" تمارس ما يسميه الناس "قتل الوقت"؟!  
أم جلوسك مع سقراط، وبرناردوشو، وديورانت، وشوقي، وحافظ،  
وأعلام الفكر من كل عصر، ومن كل جيل..؟  
أنا طبعاً لا أدعوك إلى أن تنسى حق نفسك عليك في المرح  
والراحة، والتسلية..

ولكني أربأً بحياتك أن تذهب كلها تسلية..  
وعزيزٌ على أن تعيش ما تعيش فقير العقل، جوعان الفكر، وحولك  
من الكنوز، ومن الأطايب ما يعرض نفسه عليك بغير ثمن، وبغير من،

وبغير حساب..!!

لقد أودعَ أساتذة تراثهم في الكتب.. فلماذا لا تنشئ مع هؤلاء  
الرجال الكبار صلوات..؟؟

لماذا لا ترتبط معهم بزمالة وصدقة..؟؟

لماذا لا تُسعد نفسك وتُشرفها بصدقة هؤلاء الذين أعلنوا رأيهم  
في الحياة واصطفاهم القدر الإنساني ليقولوا كلمته، ويسجلوا خطاه..؟

اقرأ.. واقرأ.. اقرأ كثيراً، واقرأ دائماً - إذا اردت أن تحيا..

ولا تسألني ماذا تقرأه..؟

فكل كتاب يزيدك معرفة، عليك أن تقرأ..

ليس في الثقافة حلال وحرام..

وليس في المعرفة مباح، ومحظور..

هناك - لا غير - كتب هزيلة، تحمل هدراً، وإسفافاً..

هذه ليست لنا على بال..

إنما أنا أدعوك.. للمعرفة.. للثقافة.. وللثقافة والمعرفة عبير،

سيقودك إليهما..!!

فكل ثقافة أقبِلُ عليها، وكل معرفة، خُذ من مناهلها..

اقرأ في الأدب، وفي السياسة، وفي الأخلاق، وفي الاقتصاد، وفي

العلم، وفي الدين، وفي الاجتماع..

اقرأ في كل شيء، وعن كل شيء.. وعش في أوسع مساحة ممكنة من

المعرفة والفهم..

وإذا كان لا بد لك من أن تقرأ - فأكثر من "لا بُد"، أن تعرف

"كيف" تقرأ..!!

وإني أُلخص لك هذا في عبارة وجيزة هي ذى:

- اقرأ في غير خضوع..!!

إن للكلمة المطبوعة سلطاناً عظيماً، وما لم تحتفظ بثبات رُشدك؛  
واستقلال عقلك وأنت تقرأ، فستحملك على أجنحتها بعض الكلمات  
الآسرة، وتُلقي بك إلى متاهات، يصعب العثور عليك فيها..!!

فاقرأ قراءة الأحرار، لا قراءة العبيد..

اقرأ؛ لتكتشف نفسك لا لتفقد نفسك..

اقرأ لتتبين الطريق، لا لتصير ذرة تائهة فوق الطريق.

اقرأ، وناقش ما تقرأ، واحتفظ باستقلالك الفكرى، ولا تجعل  
إعجابك بالكاتب ينسيك أنك إنسان مثله، وأن من الممكن أن يكون  
تحت سطح دماغك، كنوز تفوق كنوزه..

لا تستسلم لكل ما تقرأ، ولا تستسلم لإغراء الكلمة، فُثِّمَت كلمات  
تقرر من غير أن تدري مصيرك كله..

فإذا كانت من الكلمات الجامحة، أصابك منها ضر كثير..

والكتاب الذين يكتبون أفكارهم بأسلوب ساحر آسر، سرُّ معهم فى  
أناة..

إنهم جديرون بشكرنا وثنائنا، وإعجابنا، لا ريب، ولكن اذكر أنهم  
مهما يُحلِّقوا عاليًا؛ فلا ينبغى بحالٍ أن نتلاشى فيهم، أو نذوب  
خلاهم، أو نتبعهم صُمًّا وعمياناً..!!

ليس معنى هذا أن تقرأ وأنت تقاوم، أو تطالع وأنت تُوسوس.  
ويأخذك فى كل كلمة شك وارتباب.. لا - دع عقلك على سجيته،  
وسيرتب هو أموره..

وعندما تحس وأنت تقرأ بمثل حركة الرادار، فقف..  
 إن عقلك قد وجد نفسه هنا.. وإنك الآن أمام كلمة أو عبارة تحمل  
 لك فيضاً من الأسرار والأفكار، إذا أنت تدبرتها ونحيت الكتاب جانباً  
 لتأمل هذه العبارة التي اهتز عندها وجدانك، واختلج عقلك..  
 لا تهمل هذه الومضات التي تواتيك وأنت تقرأ.. فإنها مفاتيح كنوز  
 جلية..!!

عندما تبلغ عبارة، تمسّ روحك مسّ الكهرباء، وتحس فيها شيئاً  
 يستوقفك ويبهرك، فنجّ الكتاب قليلاً، وأصغ لما توحيه إليك، وفكّر  
 فيها. ستفتح بصيرتك على عالم من الأفكار جديد..  
 وهذه مزية القراءة..

فنحن لا نقرأ لنزيد معلوماتنا، وننمي معارفنا فحسب، بل نقرأ، لأن  
 القراءة تلهمنا، وتُطل بنا على أفكار عذراء تنتظرنا لنكشفها ونضيفها  
 إلى تراث الفكر الإنساني..  
 وكأى من مخترع، أوحى به لمخترعه، مثل هذه العبارات النابضة..  
 وكم من روائع فكرية ألهمها كاتبوها، حين استجاشت حماسهم  
 العقلية عبارة مضيئة قرأوها، أو حركت رصيدهم الفنى، لفئة من لفئات  
 الفكر الخلاق..!!

كأن هذه العبارة، أو هذه اللفظة، "عصا المايسترو" لا تكاد تتحرك،  
 حتى ينطلق العازفون فى عزف لحنهم المحفوظ..!!  
 إن فى عقلك الباطن، كثيراً من الرؤى والتجارب، تنتظر عارضاً  
 يسيراً يدفع بها إلى وعيك.. قد يكون هذا العارض كلمة تسمعها، أو  
 مشهداً تراه، أو عبارة تستوقفك فى كتاب..

فلا تقرأ، وأنت غافل ساه.. بل طالع في يقظة، وتفتح ومتابعة.. وهيبى بصيرتك لتتلقى ما تُفيئه الكلمة المسطورة من حكمة وإلهام..  
وإذا قرأت، ففكر..

لقد ضرب الله للحقيقة مثلاً - أولئك الذين حرموا نعمة الفقه، والتفكير.. فقال تعالى: ﴿جعلنا لهم سمعاً، وأبصاراً، وأفئدة، فما أغنى عنهم سمعهم، ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء﴾..!!  
فُعش مفكراً..

لقد تعودنا أن نُطلق وصف المفكر على أولئك الذين يُحوّلون المجهول إلى معلوم، والغموض إلى وضوح.. الذين يُقدمون إلينا عقل الحياة..!!

وهذا حق ..

ولكن من الحق أيضاً، أنك تستطيع أن تكون واحداً من هؤلاء حتى لو لم تؤلف وتكتب..

وتستطيع أن تغنم من التفكير، وتظفر من مزاياه بما يرفعك - مهما يكن حظك منه - إلى مستوى "إنسان مفكر" ..

ذلك أن مزية التفكير أنه يؤكد وجودك الخاص، ويَهَبُكَ وجهة نظر خاصة تجاه الحياة، وقضاياها..

فإذا نَمَتْ وجهات نظرك هذه إلى حدٍ يدعو لبروزها والتعبير عنها، وجدت نفسك مسوقاً لأداء هذه المهمة فتكتب أو تتحدث.

وفى أى مستوى من مستويات البلاغ كنت؛ فأنت مفكر: ما دمت قد فكرت فعلاً وكونت لنفسك بنفسك وجهة نظر جديدة..

إن "سقراط" لم يؤلف كتباً.. ومع هذا فهو فى الصف الأول دوماً،

والمكان الأعلى بين مفكرى البشرية كلها..!!

لماذا وهو لم يؤلف كتاباً..؟؟

لأنه عاش مفكراً، وعكس على الحياة صورة تفكيره.. وبذلك استطاع أن يؤلف مكان الكتب جيلاً من الفلاسفة لا يزال الفكر الإنسانى وسيظل يقبل على موائده مفتوح الشهية..!!

و "جمال الدين الأفعانى" لم يؤلف كتباً - عدا رسائل يسيرة محدودة .. ومع هذا فقد ملأ الدنيا وشغل الناس..!!

ولم يكن ينزل فى بلد ميت ويقضى تحت سمائه بضعة أشهر حتى تقوم فى هذا البلد ثورة.. أو يسقط عرش.. ويكتب تاريخ..!!

لم يكن يصنع أكثر من أن يدير خواطره الذكية على مشاكل الناس، والدنيا.. يقرأ، ويفكر، ويقرر.. ثم يجلس إلى حفنة من مريديه، يتحدث إليهم ويودع قلوبهم شجاعته وعقولهم حكمته.

وهم بدورهم يفكرون.. ويقررون.. وتنتقل العدوى النبيلة الطيبة شيئاً فشيئاً حتى تتحول إلى قدر يبلغ أمره.

و "توم بين" حين نزل أرض الولايات المتحدة، وهى يومئذٍ مستعمرات بريطانية، أتاها جائعاً غريباً، مُزوداً بوصية إلى أحد سكانها الأثرياء، ليجد له عملاً يعيش من كفافه.. فإذا هو بعد هبوطه الأرض الجديدة بثلاثة أعوام؛ لا غير، يُشعل فيها ثورة الاستقلال التى حررتها إلى الأبد..

أى سر كان معه..؟؟

هذا الفقير المعدم العاطل..!!

لقد قرأ كثيراً، وفكر كثيراً، وكانت أفكاره تنمو داخل نفسه حتى



جاء ميقات ميلادها، وتهيأت لها ظروف كبيرة جلييلة، فخرجت كبيرة جلييلة..!!

وهناك بين الناس المُستعبدين المُضطهدين، جلس وكتب بضع صفحات أسماها "الفهم" أو "حصافة" لخصها وجهة نظره التي كونها تفكير طويل، وأعانت عليها قراءات كثيرة.. وقرأ سكان الولايات جميعاً هذه الصفحات؛ فإذا هم ينطلقون كالإعصار.. وإذا النار المقدسة تتأجج، وراية الحرية تخفق..

ويرتل الناس كلمات "بين" وأفكاره في كل مكان - في البيوت.. في الشوارع.. في المدارس.. في الميدان.. تحت ضربات المعركة.. وفي مراكز تموين القوات المحاربة.. الصبيية، والشبان، والكهول..!!

فكّر إذن، وفكّر دائماً، وحوّل عقلك في كل اتجاه؛ فإنك لا تدري أى عملاق رابض تحت ضلوعك.. فكّر، لا لتكون "سقراطاً" أو "توم بين" أو "الأفغانى" وإن كان من الممكن أن تكونه..

بل فكر لأنك إنسان، ومن ضرورات إنسانيتك، أن تكون مفكراً، وأن تكون لك وجهة نظرك، تجاه عالمك، وتجاه كل قضايا الحياة.. ولكن..

- فكّر في غير غرور ..

ليس هناك أحد، فيلسوفاً كان أو عبقرياً، يملك وحده الحقيقة ويعرف وحده جميع الصواب.

إن الناس لم يُختصروا في واحد.. والحقيقة لم تُحس نفسها داخل دماغ..!!

كل فكر يرى الحقيقة من جانب، ويكشف منها عن جزء.

وكل تفكير مهما يكن شامخاً، فليس سوى شمعة في "شمعدان".  
بل "شمعدانات" كثيرة، ترسل معاً، الضوء الذي يعين على رؤية  
الحق شيئاً فشيئاً..

فمهما يفتح الله لك من رحمة وحكمة لا تدع الغرور يستحوذ عليك  
- إن الغرور عزاء تقدمه الطبيعة لصغار النفوس، فلا تكن صغير  
النفوس..!!

واذكر أن آفة كل تفكير سديد، هو الغرور الذي يأخذ ضحاياه  
بعيداً عن الصواب، ويعزلهم دون أن يدروا عن مجال المعرفة والفهم.  
لقد كان شعار العالم الرياضي الكبير.. "لاجرانج" .. هذه الكلمة  
الباهرة - "لا أعرف" ..!!

و "نيوتن" وأنت تعرف من نيوتن.. كان يقول:  
"إنى أترأى لنفسي، كما لو كنتُ غلاماً يلهو على شاطئ البحر  
وأسأل نفسي بين الحين والحين بالعثور على حصة أكثر ملاءمة أو  
صدقة أكثر جمالاً.. بينما محيط الحقيقة العظيم يمتد أمامي دون أن  
أعرف عنه شيئاً..!!"

ففكر حين تفكر؛ دون أن تتخلي عن فضيلة التواضع، ودون أن  
يأخذك الغرور بعيداً عن حقيقة نفسك..

وإذا فكرت في حصافةٍ وسداد؛ وجدت تفكيرك هذا يُصدر قراراته  
تباعاً في كل موقف؛ وفي كل واقعة.. ووجدته يكون لك فلسفتك التي  
تقتنع بها؛ وعقيدتك التي تؤمن بها؛ وآراءك التي تدافع عنها..  
وستقول في اعتزاز: هذا رأيي.. وهذه عقيدتي..

حسن هذا؛ فلا بد أن يكون لك أي رأي، ولا بد من أن يكون لك

اقتناع تؤدي واجباتك حسب مقتضياتها..  
 لكن اذكر دائماً؛ أن رأيك، أو اقتناعك ليس هو الحق كله؛ لأن  
 واحداً بمفرده لا يستطيع أن يعرف الحق كله..  
 إن رأيك في أعلى مستويات صدقة وحذقه، يمثل وجهاً من وجوه  
 الحقيقة.. وهو - إذا صادف الصواب - تفسير صحيح للمسألة التي  
 يعالجها، لكنه ليس التفسير الأوحد، ولا التفسير النهائي..  
 ضع في يقينك، أنه لا أحد يصيب كل الصواب.. ولا أحد يخطئ  
 كل الخطأ..  
 ومن ثم، فالحقيقة لا يملكها عقل واحد.. وإنما تُهدى إليها جميع  
 العقول، العاملة في سبيل الوصول إليها..  
 والإنسان الرشيد، هو الذي يسعى لرؤية الأشياء كما هي، لا كما  
 يريد.

وكل هذا يقتضى أن ترفض التعصب.  
 فإذا اقتنعت بقضية ما، فليكن اقتناعك ثمرة الفهم..  
 لقد انتهت تلك العهود التي كان شعارها "لكي تفهم، يجب أن  
 تؤمن" .. وجاءت عصور، شعارها.. "لكي تؤمن، يجب أن تفهم" ..  
 فكل إيمان لك، يجب أن يكون ثمرة فهم، وتفكير، واستقصاء..  
 وما دام سيكون كذلك، فجدير به أن يظل على ولاء واحترام للقوة  
 التي أنجبته وأثمرته - وهو العقل.. أجل - مادام إيماناً ثمرة العقل  
 والتفكير، فأول واجباته، أن يظل مستعداً لسماع كلمة العقل  
 والتفكير..!

إن الذين يتعصبون، هم الذين يؤمنون إيماناً أعمى.. إيماناً وراثية،

أو عدوى، أو تقليد..

وهم يتعصبون لما عندهم، لأن التخلّى عنه يتطلب منهم جهداً عقلياً، هم أعجز عن أن يقدرُوا عليه..

ويحسب المتعصبون أنهم أقوياء الإيمان، بيد أنهم واهمون، لأن الإيمان القوى الرشيد يحمى نفسه بالتسامح والفهم، بينما يبحث الإيمان الضعيف المهلهل عن سِنَادٍ من التعصب والجهل يحمى به بناءه المتداعى..

إننا في عصر يستمد عمليات المعرفة، حقائقه، ومذاهبه والمعرفة ترفض التعصب رفضاً مطلقاً؛ لأن غاية المعرفة، الوصول إلى ما هو حقيقى..

والطريقة الوحيدة لمعرفة ما هو حقيقى، اشتراك جميع العارفين فى الكشف عنه.. وهذا يتطلب أن تُطرح جميع مقدماته وقضاياه فى حلبة الجدل، وفى مجال النقاش والفحص، ويقتضى ألا تحوط وجهة نظرك بتقديس خاص، يزود الآخرين عن مناقشتها.. فقيام فكرة عظمى، فى فكرة عظمى نظيرها، هو ما تريده الإنسانية، وما يمليه الرشد..

ولنذكر أن التقدم الإنسانى، كان سَيُحقق أضعاف انتصاراته هذه، بمجهوده أدنى، وضحايا أقل.. لو أن الناس تعودوا من عهد بعيد أن يفكروا فى غير هوى، ويؤمنوا فى غير تعصب.

ولنذكر أن أفضل مكاسبنا الحضارية، يتمثل فى النمو الخُلُقَى الذى يضع التسامح مكان التعصب، والفهم مكان المغالطة، ونُشْدان الحقيقة مكان سيادة الهوى..

نَحُّ التعصب دائماً من عقلك وقلبك ..

ولا تقتنع بالأشياء التي لنفسك إليها هوى .. ثم تذهب باحثاً عن البراهين التي تثبت صحتها .. بل ابدأ بالبراهين أولاً .. ودعها وهي تهدك إلى النتائج القويمة ، والأحكام السليمة .

لا تكن كالقاضي التركي القديم ، الذي كان يحكم على المتهم بالإعدام، ثم يقول وهو يفتل شاربه ! " والآن نناقش الشهود " !! ناقش الشهود أولاً .. استعرض البراهين، والمقدمات والشواهد .. وتأملها . واقرأ معظم إن لم يكن جميع وجهات النظر التي أبدت في الموضوع .. ثم اختر في أناة، وبغير تحيز، رأيك أنت. واقتناعك أنت.. فإذا اقتنعت بشيء ما، فلا تُعطي اقتناعك صفة الخلود.. فلا مكان اليوم للأحكام النهائية..

العلم يكشف كل آن جديداً. ولا يفتأ يعلمنا أن الجمود انقراض وأن التعصب جهالة. فكن مهياً دوماً للسير في موكب الحقيقة الجديدة. لا تكن من الذين يقولون: إما .. وإما .. هؤلاء الذين يحسبون أن الشيء إما أبيض، وإما أسود.. ولا ألوان أخرى هناك..

كلا .. هناك "إما" الثالثة.. وهي تتكرر إلى ما لا نهاية..

فابحث وراء هذا الفيض من الاحتمالات، ولا تطحن نفسك بين شِقَى رَحَى "إما .. وإما" .. !!

ليس معنى هذا أن تقضى عمرك تائهاً بلا مرفأ .. وليس معناه أن تعتزل الحركة الراجحة في تيار الحقيقة والصدق..

إنما معناه أن تبلغ هذه الغاية بجهد البصير، لا بتواكل الأعمى .. وأن تحتفظ باستقلالك الفكري، حتى إذا بزغت من بين الآراء

المتفاعلة حقيقة جاء ميعادها، سرت تحت رايتها مع السائرين على بصيرة وهُدَى..

وتجنبك التعصب للفكرة، يعنى ترك التعصب لصاحبها..  
ولكى تختار آراءك اختيار الراشدين الأحرار؛ سيكون لك حق مناقشة الآخرين..

ومهما يكن هؤلاء الآخرون، فلا تتلق منهم "الأحكام الجاهزة" بغير أن تمر فى أنبوبة الاختبار الخاصة بك، وهو عقلك.  
تعلم من جميع المعلمين.. ولكن تعود أن تلقاهم فى أفكارهم لقاء الند القدير، لا لقاء التابع الضرير..

ادرس آراءهم وناقشها.. فإذا اقتنعت بها فخذ مكانك إلى جوارهم، وارفع رايتك إلى جوار راياتهم - وستكون آئذٍ سائراً وفق رأيك الذى وافق آراءهم..!!

أجل.. ستكون سائراً وفق رأيك أنت، وإن كانوا هم الذين دُوك عليه، وهدوك إليه..

ذلك أنك لم تقبله مُغمض العين؛ بل أدت عليه خواطرك، وقلبت فيه وجوه رأيك، وعانيت اكتشاف ما ينطوى عليه من صدق. وتركت عليه طابعك..

وهذا كله يجعلك صاحب حق فى أن تقول: هذا رأبى..

وهذا مزبة التفكير، والاختيار..

إنهما يُعلنان سيادتك، ويحررانك من عوامل التبعية والخضوع.

\* \* \*

فإذا قرأت فى غير خضوع..

واقتنعت في غير تعصب..

وأراد اقتناعك هذا أن يعبر عن نفسه بكلمات، فقلها بقوة وإبانة.

انطق بما تقتنع به في غير فأفأة، وفي غير هروب..

- واجه الدنيا بكلمتك، ولا تقل: مَنْ أنا..؟؟

فمعظم ما في عالمنا من حقائق، ومبادئ، إنما بدأت بكلمات قالها

أفراد.

كل مبدأ عام، يؤمن به الناس اليوم - إنما كان دعوة رجل واحد.

وكل طريق عام تمضى عليه أجيال البشر، إنما اكتشفه فرد، أو

أفراد لا يزيدون عنك - إن زادوا - إلا بما بذلت عقولهم من جهد، وما

تحلّت به إرادتهم من شجاعة..!

فهاتِ كلمتك، ولا تخجل، فلعلها حقيقة جديدة ينتظرها التقدم

الإنساني، وقد جاء موعدها.

لا تحقرن من تفكيرك السديد شيئاً، فإنك لا تدري ما ينطوى عليه

من عطاء..

إن الرجل الذي قال: "الأرض تدور حول الشمس". لم يكن في

حسابه يوم قال هذا، شيء مما ترتب على كشفه فيما بعد من فتوح

ومعجزات..

والرجل الذي حاول أن يصطنع لنفسه جناحين يطير بهما منذ قرون

بعيدة، ولما سقط قال: "سيفعلها القادمون بعدى"!! لم يدر أنه بهذه

الكلمات العابرة والمحاولة الساذجة إنما يصدر القرار الذي سيمهره

العلم - فيما بعد - بتوقيعه..!!

هل تعرف ماذا فعل الرسل، وماذا فعل كل الرواد الذين صاغوا

مصير الإنسان ..؟؟

لا شيء سوى أن قالوا كلمتهم، ووقفوا بجانبها ..

فقل كلمتك .. إن الحياة تنتظرها ..!!

لا تحسب أنك جئت إلى العالم متأخراً .. أو أن الحياة الإنسانية قد  
سَوَتْ مَشَاكلها .. وأتمتْ أمورها، ومن ثمَّ لم تعد بحاجة إلى من يقول  
أو يفكر أو يعمل ..!

قل كلمتك في أيسر الأمور، وأخطرها ..

قلها؛ فإن تك خطأ، صححتَ خطأك .. وإن تك صواباً ساعدتَ  
الآخرين على الاقتراب من الحق ..!!

وإن تك مما لا يتفق والسائد المألوف، فقلها أيضاً ..

سيتهمك الناس بالتمرد ..! أليس كذلك ..؟؟

ألا فاعلم أنه لم يمر بأرض الناس هذه، عظيم مبدع إلا بدأ في  
أعينهم متمرداً؛ ثم انتهى إماماً ورائداً ..!

انطلق بما يدور في خلدك، فلو كَبَتَ كل إنسان في نفسه ما يراه حقاً  
لفسدت الأرض وانقرضت الحياة ..

إن بين يدي ثورات الحرية في كل زمان - كلماتٍ هتفتُ بها،  
ولولاها ما قامت هذه الثورات ..

وبين يدي كل الإصلاحات الشاهقة، كلماتٍ دَعَتْ إليها، ولولاها،  
ما كانت هذه الإصلاحات ..

وقوى الظلام لا تطمع في شيء أكثر من إسكات الكلمة المضيفة.

إن أعداء "محمد" ﷺ لم يكونوا يريدون منه سوى السكوت ..

وأعداء "المسيح" عليه السلام لم يكونوا يريدون منه سوى



السكوت..

وجميع الذين علّمونا، وكشفوا مجاهل حياتنا، رفضوا أن يقايسوا  
على حقهم في القول، بكل ما في الدنيا من كنوز، وتيجان!!  
حقاً إنه "في البدء كان الكلمة" وستبقى الكلمة أبداً الرائد  
والدليل..!!

وإن ولاء الحياة للكلمة ليقف فوق كل ولاء.

انظر.. كم من سكان الكرة الأرضية اليوم وقبل اليوم يعرف اسم  
الملك أو الحاكم الذي كان يحكم "أثينا" أيام أفلاطون؟  
إنها قلة لا تذكر.. ولكن تسعة أعشار سكان الكرة الأرضية يحفظون  
اسم "أفلاطون" حتى الأطفال في المدارس..!  
كم واحد من العالمين، يذكرون أو يعرفون اسم القيصر الذي كان  
يحكم روسيا أيام "تولستوى"؟  
إنها قلة ضحلة..

أما الذين يعرفون تولستوى، ويقرءون له.. فمئات ملايين تنادى  
مئات ملايين..!!

هذه عظمة الفكر.. وعظمة الكلمة..

فقل كلمتك إذا كنت من المفكرين والكتاب..

وقلها إذا كنت من غير المفكرين والكتاب..

لا تكن من الذين يخافون أن يقولوا كلمتهم، وينتظرون أن  
يسمعوها من غيرهم..

\* \* \*

ولكن اذكر أنني أقول لك: قل كلمتك.. ولست أقول: افرض

كلمتك.. فالطريقة التي تقول بها كلمتك؛ وتعرض بها فكرك، لا تقل أهمية عما في كلمتك من حق وقيمة، هناك أناس يتكلمون، كأنهم آلهة..!!

ويعرضون آراءهم وأفكارهم وكأنهم يقولون: "أمرنا بما هو آتٍ" ..!!

لا تكن من هؤلاء أبداً.. ولا تخاطب غيرك من فوق منصة الأستاذية.. وخير غرض تتوخاه بكلمتك أن تزيد بها عدد الأحرار، لا عدد العبيد..

وذلك يقتضى:

أن تقولها.. لا أن تفرضها..

وأن تحاول بها الإقناع.. لا الإكراه..

والهداية.. لا السيطرة..

وعندئذٍ قلها بصوت راسخ.. فإن الحياة تنتظر سماعها..!!



## الوصية الثامنة

تقبلْ وُجُودَكَ ، وَطَوْرَهُ  
وَاخْتَرْ حَيَاتَكَ، وَعِشْهَا..  
وَابْقَ إِلَى النِّهَايَةِ حَامِلًا رَأْيَتَكَ..!



www.alkottob.com

ولد لأحد الحكماء الأقدمين ولد. فبكى..  
 قيل له: ما يبكيك ..؟  
 قال: الآن مات..؟

حكمة مناسبة لكى نبدأ بها حديثنا هذا..!!  
 فنحن حقا يصبح الموت قدرنا المحتوم منذ اللحظة التى يتلقانا  
 فيها المهد.. أن كلا منا يجيء الحياة ومعه بطاقة.. مكتوب فى أعلاها،  
 "ولد" ومكتوب فى أسفلها "مات" ..!!  
 بيد أن رحمة الله وحكمته، تحجبان عنا الكلمة الأخيرة، لتتم  
 بهجتنا بالحياة، ولنظل فى تفاؤل يمنحنا حوافز الحياة..!!  
 أما ذلك الفيلسوف، فقد قرأ الكلمتين معا حين بشروه بوليدته فبكى.  
 وقال: الآن مات..!

لأنه ما دام قد وجد؛ فهو حتما سيفقد..!!  
 وأنا أحب أن أتصور القصة فى وجهها الآخر..  
 أتصور الحكيم يضحك..  
 فإذا سئل، لماذا يضحك؟  
 أجب: الآن ولد..

لستُ أعنى الطفل طبعاً.. إنما أعنى الفارس الذى يتضمنه الطفل..  
 والوجود الضخم الذى يمثله هذا الوليد..  
 إنه لشيءٌ مُبهج، ومُحيرٌ معاً، أن نُبصر ميلاد طفل فى ظل هذا  
 الشعور وهذا التفكير..  
 لقد أُتيح لى ذلك أكثر من مرة.. وكنتُ كلما أهلاً الوليد صارخاً  
 ضحكْتُ..

لا تحسب أنى بهذا أنتحل صفة الحكماء..!!  
 تُرى ما الذى كان يضحكنى؟؟  
 كنتُ أنظر إلى قطعة اللحم الحمراء التى لا تكاد تملأ راحتى  
 القابلة.

وأقول لِنفسى: هنا، مُغامرٌ جديدٌ جاء يجرب حظه..!!  
 وإنه ليصرُخ ليخبر الدنيا بقدومه، ولتفسح له مكاناً سريعاً كأنما  
 ليس لديه وقت للانتظار..!!  
 وأتأمل مشهده، وهو يضطرم فى حركة وعنفوان يركلُ بساقيه ويُلوحُ  
 بيديه فأكاد أقول له: صبراً يا أخانا، فالعالم فى مكانه لن يُريم،  
 والأرض ساكنة لن ترحل.. صبراً وسيجىء دورك..!!

\* \* \*

الحقيقة أن كل ولادة، حادثٌ عظيم.. وأن كل مولود، حياة هائلة  
 تقمصت جسداً لتلعب دورها عن طريقه.  
 كل ولادة، وكل مولود هذا الشأن، خاصة حين نستعرض الأفاذ  
 الأعلام الذين اختارتهم الأقدار من بين الأكوخ المعدمة.. وتلقتهم  
 الحياة يوم وُلدوا فى مَهود خشنه من ورق العشب، أو مزقِ الأسما

البالية..!!

أجل، عندما نستعرض الحشد الجليل من رُسُل الله، وقادة الأمم، والمبشرين بالحق والخير، وعباقرة الفكر، والفن، والعلم.. ونرى الأكثرين منهم تختارهم العناية من بيوت فقيرة، لا تقع عليها العين فى زحام الحياة - نقول: حقًا إن لكل ولادة شأواً، ولكل مولود نبأ..!!  
فمن يدري كُنْه القوة الكامنة فى هذه القطعة الملساء من اللحم..؟  
ومن يدري أى دور هائل سيؤديه هذا الوليد..!  
ولكن لنبدأ من البداية..

قلنا: إن الحكيم بكى لميلاد ابنه، وقال: الآن مات..  
وقلنا: إن هذا سر الحياة.. كل من يفد إليها يوماً، يرحل عنها فى يوم آخر..

كلنا نعلم هذه الحقيقة، فهل حملنا هذا اليقين على كُره الحياة..؟؟  
هل حملنا يقيننا بأن الموت مصير كل حى على أن نكف عن طلب البنين والبنات، والفرح بميلادهم، وبحياتهم، أعظم ما يكون الفرح والابتهاج..؟؟

كلا، وإنما لنحب الحياة.. ونحب أن يكون لنا فيها نسل، مع علمنا بالمصير..

وإذا كنا نتقبل مبدأ الحياة ونحن نعرف نهايتها.. فيجب أن نتقبل نوعها.. على أى وجه يكون..

نحن لا نجىء الدنيا فى ظروف واحدة..

فهناك الغنى، والفقر، والصحة، والمرض، والتقدم، والتخلف..  
ولكل منا مهد يتلقاه، ويصوغ أوليات وجوده وخامات مصيره -

حسب ظروف البيئة، والإمكانات المحيطة بهذا المهد..  
 وإذا تصورنا الحياة سباقاً، فنحن لا نبدأ السباق من نقطة واحدة..  
 وهذا أحد الألباز الكبرى التي تنطوى عليها الحياة!!  
 ولكن إذا كنا لا نبدأها من نقطة واحدة - كما يبدو - فإن التعويض  
 سر آخر عجيب من أسرار حياتنا!!

وما أكثر الذين تقتضى ظروف حياتهم أن يتخلفوا، أو يسيروا فى  
 بطء، بيد أن قُوَى هادرةً تتحرك داخل أنفسهم، حين تضغط إرادتهم  
 على محرك هذه القوى فإذا هم سباقون لا يُدرك لهم شأو، ولا تُنال لهم  
 حُطَى..!!

فنقطة البدء إذن لا تهم فى تقرير المصير، بقدر ما تهم طريقة  
 السير..

فمهما تكن ظروف نشأتك؛ فعليك أن تتقبل وجودك.  
 هذه هى الخطوة الأولى الحكيمة فى السباق الذى تريح فيه حياتك.

\* \* \*

تقبل وجودك فى طمأنينة وغبطة، كائناً ما يكون هذا الوجود..  
 حين تقع فى يدك قارورة ثمينة، بها ماء آسن، فأنت لا تحطمها  
 بسبب ما فيها، وإنما تُفَرِّغها، وتغسلها جديداً، وتملؤها بالعطر الذى  
 تريد..

ووجودنا، فى التشبيه البسيط، قارورة ثمينة..  
 كل وجود حى له قيمته، وله نفاسته..  
 وأنت تتسلم وجودك، مملوءاً بما لا حيلة لك فيه من ميراث  
 الأهلين، ورواسب الخلق..



وعلى أى صفة يكون، فهو وجودك.. تذهب يميناً أو شمالاً.. تتخذ لك نفقاً فى الأرض أو سلماً فى السماء، لا مفر لك منه ولا مهرب..!!  
هذا إذا تصورت وجودك تصوراً مغلوطاً متشائماً، فحسبته غرماً لا غنم فيه..

على أن الأمر ليس كذلك أبداً. فكل وجود مهما تكن ظروف نشوئه، ينطوى على قُوَى باهرة ومقادير عظمى..

ولقد ضربتُ لك مثلاً - أساتذة البشرية الذين تسلموا وجوداً فى مستوى عادى.. وجوداً محوطاً بصعابٍ قهروها واتخذوا منها مزية ومِعراجاً..!!

كما أن هناك كثيرين تسلموا وجوداً محوطاً بالنعم والمباهج، وكافة الظروف المساعدة، مع هذا فقد تحطموا على أول الطريق، ولم يصلوا بوجودهم ذاك إلى شىء - أى شىء..

إن الدقة بأيدينا، والرَبان القدير، يحسن التفاهم مع الريح، ومع الموج؛ فيتم رحلته فى عافية..

تقبّل وجودك إذن، وشمّر ساعدك؛ لتصنع من خامات هذا الوجود حياة إنسان عظيم وكريم..

نحن نُعطى الوجود، ونأخذ الحياة..

وساعة الميلاد، تدق مُعلنةً وجودنا.. لكن ساعة الرشد، هى التى تدق مُعلنة بدء حياتنا..

فإذا كنت على حظ من الرشاد كبير، فستصنع من وجودك الخام، حياة نابضة، نامية، باهرة..

فَسِرْ بوجودك فى رفق واتئاد، مُيمماً وجهك شطر المصابير العظيمة،

فى حفاوة ورشد..

ومهما تبذل من جهد، وتتفصّد من عرق، وتسهر مع نجوم الليل  
فسيطلع لك فجر منبلج، يبشر بمقدم الأيام المنتصرة - أيام حياتك  
الوارفة التالدة.. وعند الصباح يحمد القوم السرى..

مثل الوجود، والحياة.. كمثل الصخر والتمثال.. عندما ترى مثلاً  
ينحت من حجر أسداً.. فانظر كيف حول الحجر الأغلف إلى أسد..!!

إن الحجر هو الوجود..

والتمثال هو الحياة..

وكما تحول الحجر فى يد المثال الحاذق إلى أسد عجيب.. كذلك  
أنت عليك أن تحول وجودك الخام إلى حياة ذكية..

واعلم أن وجودك ينطوى على كل مقومات الصورة الباهرة التى  
تريد أن تجيء حياتك وفقها..

فالنموذج الذى يريده كل منا لنفسه، رابض داخل نفسه محفورة  
معالمه على جدران وجوده ينتظر أن يملأ أخاديه بالحكمة وبالعزيزمة  
فإذا النموذج ينهض قائماً..!!

عندما سأل "سقراط" أباه وكان هذا الأب مثلاً بارعاً: كيف يصنع  
بإزميله المعجزات..؟؟

أجابه قائلاً: "عندما أريد أن أنحت من الصخر أسداً؛ فإنى أبصر  
الأسد كامناً فى الحجر. وأحس به رابضاً هناك تحت السطح ينتظرنى  
أن أطلق سراحه..!!"

وعندما سأل أمه عن سر مهارتها فى توليد الحوامل من الأمهات؟  
أجابته قائلة: "إننى فى الحق لا أصنع شيئاً، سوى أن أعاون الطفل

المستكن في الرحم على البزوغ والانطلاق!!  
 إن حياة "سقراط" بما فيها من حكمة، وما لها من شموخ مدينة  
 بجلالها الباهر لهاتين الإجابتين اللتين سمعهما من أمه وأبيه.  
 ولقد أخبر فيما بعد، أنه لم يصنع لكى يكتشف نفسه، ثم لكى  
 يساعد الآخرين على اكتشاف أنفسهم، وحيواتهم، أكثر من هذا الذى  
 كان يصنعه أبوه وأمه..

ونحن جميعاً.. وأنت وأنا.. وكل إنسان حى، لا يصنع، لكى يحول  
 وجوده إلى حياة، أكثر من هذا - رؤية الأسد الكامن فى الحجر،  
 ومساعدته على الانطلاق..

فتأمل دائماً هذه الحكمة الجليلة التى قالها لسقراط أبوه..  
 - "إننى أرى الأسد كامناً فى الحجر؛ وأجسُّ به رابضاً هناك،  
 ينتظرنى كى أطلق سراجه" فحياتك كامنة فى وجودك كُمونَ الأسد فى  
 الحجر..

وهى تنتظرک لتعاونها على الانطلاق.  
 وهذا يتطلب منك فطنة وبصيرة..  
 فالنحات الذى لا يبصر فى الحجر سوى صلابة الصخر، يضرب ولا  
 يُبالى..

أما الذى يبصر فى الحجر أسداً رابضاً، فإنه يحرك إزميله فى مهارة،  
 ويضرب الحجر فى ذكاء..!!

إنه يتحامى أى خطأ قد يشوه جمال الأسد الكامن هناك..  
 ومن ثم - فهو يحرك يده فى لمساتِ فنان، لا ضرباتِ هرقل..!!  
 وهو يكابد بعقله، لا بعضلاته..

وبذكائه، لا بعواطفه..

وهكذا شأنك مع حياتك..

تصور النموذج الذى تريده، وفى أية سن كنت من سنى عمرك، فأنت قادر على أن تولد من جديد، وتكون لك الحياة التى تريدها..

إن فىك خيراً كثيراً، واستعداداً هائلاً للتفوق.. أبصره جيداً.. ثم احمل إزميلك - وانحت لنفسك الحياة التى تريدها فى حذق، وأناة، وإصرار، ونهّل..!!

\* \* \*

وإذا أدركت أنك تصوغ حياتك، فلتكن من الذكاء بحيث لا تقضى عمرك فى صياغة حياة لغيرك..

أجل، كن من الذكاء بحيث لا يغتالك التقليد..

كن نفسك، وعش حياتك..

إن لكل منا نموذج الكامن فيه، وواجهه أن يطلق سراحه، ويعاونه

على الظهور والتألق..

فإذا كنت نفسك، وعشت حياتك، فإن كل جهودك ستنتجه نحو

نموذجك، تُجلى قسماته، وتُنمى حسناته، وتؤكد استمراره وانتصاره..!!

أما إذا ذهبت تقلد الآخرين، وتبدد جهودك فى تقليدهم فأنت

بهذا، إنما تعاون نموذجهم هم على انطلاق أكثر، وانتشار أكبر..!

أنت بهذا تهمل فضائلك ومزاياك، وتركها للذبول والجفاف، بينما

ترعرع مزايا غيرك، التى قد لا تكون فى المستوى العالى لمزاياك التى

أهملتها..!

إننا نقلد، لأننا نجهل طبيعة الحياة، ولأننا قبل هذا كافرون بأنفسنا

وبقيمتنا ..

إن الحياة تريد التنوع، وتباركه، وتعمل به، وله..

انظر..

إن الزرع مختلف ألوانه.. والثمار لها صنوف شتى.. بل إن النوع الواحد من الفاكهة الواحدة - كالمانجو مثلاً، أو البرتقال أو العنب، ليتنوع، ويتشكل في نماذج كثيرة..

وهذه البلايين من الناس الذين ولدوا، ويولدون، من بدء الخليقة إلى الأبد.. يؤكدون قانون التنوع بما بينهم من تفاوت مبین..! بل حتى حين يصور الله سبحانه توأمين في صورة واحدة أو شديدة التماثل، فكأنه بهذا أيضاً يظهر قيمة التنوع..

كأنه يقول لنا: انظروا.. إننى قادر على أن أخلقكم جميعاً متشابهين كهذه التوائم.. ولكنى لا أريد.. لأن التنوع بركة، وفي التنوع حكمة..!! أجل - إن التنوع بركة وخير.. وإنه لمن أهم مصادر الشراء للحياة الإنسانية..

ولو أن حياة البشر سارت على نسقٍ واحد، لانقرضت وبادت.. فلماذا تقلد غيرك إذن، وقد جئت الحياة لتكون نموذجاً جديداً من نماذجها..؟؟

لماذا جىء بك إلى الحياة إذن، إذا كنت ستكون مثلاً لغيرك..؟  
أتظن الحياة معرض ظلال أو مسرح عرائس..؟؟!  
لا - إن الحياة جدٌ، وتجديد.. وأنت هنا لتحيا حياتك وتعطى ثمرتك..

وهذا يقتضيك أن ترفض التقليد..

هناك فارق بين أن تقلد غيرك، وأن تنقل إلى نفسك فضائل هذا الغير..

فأنت بالتقليد تهدم نفسك، وأنت بالتطعيم، ترعاها وتزكّيها.. حين تنقل إلى حياتك المزايا التي تنقصها، تكون كمن يعوض فقر دمه، بقدر محدود من حقن الدم.. وهو عمل صالح ونافع.. لكن حين تذهب لتقلد غيرك تقليد القردة، تكون كمن يريد أن يستصفي آخر قطرة من دمه تجرى في عروقه؛ لكي يملأ هذه العروق بدم آخر من فصيلة أخرى.. ربما تكون في النظام الطبقي للدماء أعلى شأنًا وأنبل عائلة..!"

ألست تضحك من حماقة الذي يفعل هذا الصنيع، ويرثي لنكبته؟؟  
ألا فاضحك تمامًا من حماقة من يقضى عمره غريبًا عن حياته، يقلد هذا، ويقلد ذاك - تاركًا وجوده وحياته ومزاياه بغير عائل، وبلا معين..!!

إنه لينطبق عليه المثل الذي يقول:  
"ذهب يطلب قرناً، فعاد، وصوف ظهره مجزوز..!!"  
فأمن أنت بنفسك، واحترم وجودك، واختر حياتك.. لا تقلد غيرك، فتقضى العمر تائهاً عن نفسك، غائبًا عن حقيقتك، ضالاً عن مصيرك..

هل تحب أن تقضى عمرك فوق "سقالة" معلقة بين الأنقاض؟؟  
إنك تفعل هذا تمامًا، حين تنفق أيامك في تقليد هذا وتقليد ذاك.  
إن الحياة تريدك أنت..

بخيرك وشرك.. بقوتك وضعفك.. بجواهرك، وخزفك..

لا تَخَفُ أن تكون نفسك أبداً.. مهما يبدُ لك من غرابة مزاياك،  
وجِدَّة رُؤَاك.. فلعلك بذرة جديدة تنطوى على نمط جديد من أنماط  
الحياة..!!

لا تدع إعجابك بأحد - كأنتا ما كان - يصرفك عن اكتشاف نفسك  
واستنباط المواهب الكامنة فيك..

ماذا كان يصيب الحياة، لو قلد كل إنسان إنساناً آخر يعجبه..؟؟  
ماذا كان يصيبها، لو قلد "محمد" رسول الله ﷺ عمه أبا طالب،  
ونام عن الجديد الذي كان يحمله بين طواياه، والذي هدى به الدنيا من  
ضلال..؟؟

ماذا لو قلد "بوذا" أباه، وعاش للملك والجاه وحدهما، ولم يخرج  
بعظمة روحه على السائد المألوف في بيئته..!!  
ماذا لو قلد "وشنطن" أساطين أسرته، وضاع حياته على أن يلتزم  
نهجهم - كبار تجار ومزارعين - لا غير..

ماذا لو فعل، ولم يستجب لوديعة الحياة عنده، وهي أن يقود أمته  
إلى الحرية والاستقلال، ويصوغ معها أول وثيقة سياسية لحقوق  
الإنسان:؟؟

ماذا لو استمع "لينين" لوصية أستاذه الذي حاول إغراءه باحتدائه  
قائلاً له: إنك خلقت لتكون أستاذ جامعة ممتاز..

ماذا لو قلده، ولم يخرج خبئه العظيم فيحرر أكبر أسواق الرقيق في  
الأرض من حكم القياصرة الجاثم، ويقود قومه في عزم عظيم باهر إلى  
مطالع الضوء، ومشارف الغد..!!

ماذا لو اكتفى "غاندى" بتقليد والده.. فعاش محامياً ناجحاً،

وكبيراً نابهاً فى قومه - يلتزم الحق أيضاً. ولكن يَنْفِضُ يديه من متاعب  
الجهاد العام الكبير فى سبيل تحرير وطنه اللاجِب العريض.  
ماذا لو فعل، ولم يقل لصوت التاريخ المنطلق من داخل نفسه:  
لبيك..؟!

ماذا كانت الحياة البشرية ستخسر، لو أن هؤلاء جميعاً وأمثالهم،  
راحوا ضحية التقليد، ولم يخرجوا خبء أنفسهم المعطية، وحياتهم  
الجديدة الثرية.؟!

ثم انظر الصورة من وجهها الآخر، وقل:  
ماذا كانت الحياة ستدرك من خير ورحمة، لو لم يقلد هتلر  
نابليون..؟!

ولو لم يقلد نابليون، جنكيز خان؟!  
ولو لم يقلد جنكيز خان، الأسكندر الأكبر؟!  
حقاً إن التقليد خيبة، وكارثة.. وإنه لشر ما ينزل إنسان بنفسه من  
ضر ودمار..

احلم بدل أن تقلد..  
وانسج حياتك من الأحلام الخلاقة العظيمة..  
احلم كثيراً، فالذين لا يحلمون، لا يعيشون..  
احلم الأحلام الذكية التى تستمد صدقها، وقود إفصاحها عن  
نفسها، من موثيق الحياة، ومن روح العصر..!!  
حاول أن تكشف مشيئة عصرك فى أعلى مراحل تطورها والتجّم بها  
التحاماً وثيقاً. واحلم عندئذ، فستأتى أحلامك باهرة وقادرة، وستتحول  
إلى قرارات وحياة..



وساعتئذ، ستكون واحداً من الذين يقدمون للحياة أنفسهم التى صاغوها وأنجبوها..

وهذا خير ما تنتظره منك الحياة - أن تقدم لها حياة جديدة تنسجها أنت على غرار اخترته، ولا تنقلها عن حياة أخرى بطريقة تشبه "شف" الصور.."

إن ميزة أعظم الرواد الذين مروا بالحياة الإنسانية تتمثل فى أنهم قدموا للحياة نماذج جديدة مبتكرة - هى حيواتهم التى صنعوها وأحسنوا صنعها.

لم تمنعهم آراء الآخرين عن أن يختاروا بأنفسهم لأنفسهم ما يرونه أمثل وأهدى..

ولم يصددهم احتمال السقوط؛ عن توقُّل المرتفعات والقمم..

ولم يصرفهم احتمال السخرية؛ عن التثبث بمواقفهم العادلة ولو تخلى هؤلاء عن أدوارهم الكبرى..

ولو عاشوا حياتهم من الباطن.. باطن الآخرين الذين كان يمكن أن يؤثروا فيهم..

لو جعلوا من أنفسهم طبقات مكررة لغيرهم، ولم يشقوا لأنفسهم وللحياة طرائق جديدة..

لو فعلوا ذلك، لخسروا أنفسهم، ولخسرت الحياة كل هذا الجديد السيد الذى جاءوا به، فنموا به ثراءهم، ووسعوا به نطاقها..

اختر حياتك من خامات جديدة ما استطعت.

واترك على الأرض بعد عمر طويل، آثار قدمى إنسان جديد مر بها،

وأضف إليها!

لا تخف أن تجيء حياتك بجديد لم يألّفه الناس الذين معك  
وحولك..

فمن يدري ..؟ لعل هذا الجديد على موعد مع تطور الحياة.  
كم من تقاليد كانت راسخة وطيدة تصبّ حيوات الناس في قوالبها،  
فيخرجون منها صوراً متشابهة. وذات يوم بدأ لفردٍ واحد أن يخرج  
بحياته من ريقتها فكان هذا إيذاناً باتتهاء عهدها وإهلال أنماط  
جديدة بشرّ بها تمسكُ هذا الواحد باختيار حياته، وممارسة حقوقه..!!

\* \* \*

إن امتلاكك أرضاً، أو داراً، أو ثروة.. إنما هو امتلاك نسبي..  
أما الملكية الحقة المطلقة، فهي ملكية النفس..  
أجل.. إن خير ثرواتك وأزكاها، وأبقاها هي نفسك؛ حياتك..  
فلتكن سيد نفسك، وسيد حياتك..

واعلم أن حرية روحك كفيّلة بأن تبوّك بين الأحياء العاملين مكاناً  
عالياً - إذا عرفت كيف تستخدمها في توكيد ذاتك، واختيار حياتك،  
وإذا جعلت القانون الذي تضعه بنفسك لنفسك، مظهراً صادقاً  
لإرادتك، وإذا هيأت نفسك للانتفاع بالفرص العادلة التي تسنح لك،  
والتي تناديك، لتصوغ منها نموذجك الخاص.. هذا النموذج الذي  
يتمثل في النهاية إنساناً جديداً، وإنساناً حقاً..

\* \* \*

اختر حياتك إذن سالكاً الطريق الذي تهيئه لك فُدراتك..  
واكتشف مزاياك أنت. ثم نمّها مستعيناً على ذلك برؤية الآخرين  
الذين حققوا تفوقاً كبيراً وصاغوا بأنفسهم حياة جليّة.

لكن لا تُجاوِزُ الرؤية إلى التلاشى..  
 لا تُجاوِزُ الإعجاب الحافز، إلى التقليد الضرير..  
 ووفق ظروفك وطاقاتك..  
 وفق استعدادك، وذكاكك..  
 وفق طموحك العاقل العادل..  
 وفق رؤاك الذكية الباسلة.. تقدم وضع حياتك في غير نُكوص وفي  
 غير تهور..!!

إن الذى ينتحر بأن يُعرض نفسه لما لا طاقة له به من ثلوج قمة عالية،  
 يَهْرُوه صقيعها، كالذى ينتحر بإلقاء نفسه فى ظلمات بئر عميق..  
 إذا حَلقتَ طائراً فى الطبقات البعيدة من الفضاء، بحيث تفقد  
 التنفس والهواء؛ فلن تذهب شهيد السمو، بل ضحية الغرور والنزق..!!  
 وأيضاً، إذا ترديت فى الحفرة الفاغرة، فلن يكون لك عذر أنك لم  
 تبصرها، لأن الله جعل عينيك فى مقدمة رأسك، ولم يجعلها من  
 وراء..!!

ماذا يعنى هذا الذى أقول..؟؟  
 معناه ألا تتركب الشطط فى تطوير وجودك وإرباء حياتك..  
 وألا تستسلم للعجز والهزيمة.  
 ولكن سرّ فى شجاعة، وحكمة..  
 ولا تكترث وأنت تختار حياتك بمخالفة الناس. ما دمت لا تخرج  
 على القيم الإنسانية الثابتة والعليا.. وما دمت لا تفعل ذلك لمجرد  
 الرغبة فى المخالفة والرغبة فى الظهور الساذج.  
 لا تكترث بمخالفتهم، إذا ألح عليك من ذات نفسك جديد من

الأنماط يريد أن يظهر.. فأنت كما قلتُ لك - قبلاً - نمط مستقل فريد،  
مهمتك أن تعطى ثمرتك، وتخرج جوهرك.. وتتعاون مع الآخريين من  
غير أن تتلاشى، وتكتمل تيار الحياة، من غير أن تقدم نفسك طُعْمَةً  
لأمواجه..

اختر حياتك عند أعلى مستويات التفوق الممكن والكمال  
الميسور..

ثم عَشِّها كما هي، حياتك أنت..

لا تضق بما يعثورها من ضعف ومن خطأ ولا يحملنك ذلك على  
مغادرتها ومقاطعتها..

عشها.. عشها كلها.. عشها جميعاً بحفاوة وشجاعة وإصرار على أن  
تكون سيد هذه "المملكة" الطيبة المتواضعة التي هي حياتك..  
وهكذا تعيش حاملاً رايتك، ولا تتلجلج بها يمينك فتسقط على  
الأرض..

\* \* \*

إذا أخذتَ لحياتك نَهجها، وصممتَ لها فلسفتها التي ستهدى  
خطاها على طول الطريق.. فقد نسجتَ الراية التي ستكون رمزاً لحياتك  
كدولة ذات سيادة.. فاحمل رايتك إذن في ولاء وعزم.. وابق إلى النهاية  
حاملاً لها..

ليس معنى هذا أن تجمد، وتقف تطورك النفسى والفكرى.. فنحن  
نغير رقعة الراية، إذ لوَحَّتْهَا الشمس، أو أوَهَّنَتْهَا الرياح..  
جدد رايتك أيضاً، ودائماً، ما دامت تمثل السمة المميزة لحياتك  
النامية، وفلسفتك الذكية الصاعدة.

ودعها تخفق في جو السماء، مُعلنة أن هنا وجوداً قد تطور إلى  
حياة.. وحياة صاغها صاحبها في أحسن تقويم..!  
دعها تتلأأ فوق كشف إنساني جديد يزيد البشرية ثراءً وغنى..  
كشف يتمثل في إنسان جديد.. هو أنت بما بذلت من جهد في  
تطوير وجودك، واكتشاف حياتك..!!!



www.alkottob.com

www.alkottob.com

## الوصية التاسعة

وَلَّ وَجْهَكَ شَطْرَ اللَّهِ، فَإِنَّهُ حَقٌّ  
وَضَعُ يَدَكَ فِي يَدِهِ فَإِنَّهُ نَعِمَ النَّصِيرُ !!



www.alkottob.com



يمر تفكرنا الدينى فى هذه العصور، بمرحلة تتسم بروح الانقلاب.  
على أننى، إذ أحدثك الآن عن الله، لا أريد أن أحتكم إلى التفكير  
الدينى وحده.

فاله سبحانه وتعالى، ليس موضوع الدين فحسب، بل هو موضوع  
العلم، والفلسفة، والأدب، والفن، وموضوع الحياة كلها..  
كل الكائنات العليا فى هذا الكون الكبير، تدفعها قوى باطنة إلى  
استشراق الغيب، وتتبع الخيوط التى تهدي إلى السر الأكبر.. سر  
القوة العليا التى خلقت عالمنا الفذ، وألهمته سنته، وقوانينه، ونظامه  
المحكم الوثيق..

كل إنسان تناديه هذه الأسرار..

فمنا من يسير إليها مُتتبعاً خطى العلماء..

ومنا من يسير مُتتبعاً خطى المرسلين والأنبياء..

ومنا من يرى العلم والدين، آيتين من آيات الله. يعلم بهما خلقه.

ويهيئهم بوساطتهما لكشف المجهول، ومُشاهد الحقيقة جَهرةً وعلانية..

هناك إذن، من يؤثرون فى هذه القضية التسليم والإذعان والإيمان

التلقائى البسيط..

وهناك من يُؤثرون البحث، بما يتضمنه البحث من شك، ومحاولة واحتكام إلى البراهين.  
وكثيراً ما نظن أن الفريق الثاني أقرب إلى الزيغ، وأدنى إلى الضلال..

وهذا خطأ كبير..

وإنه ليعنيني أن أستهل معك الحديث عن الله سبحانه وتعالى بهذه الحقيقة.. حقيقة أنك في عصر مختلف.. عصر لا تستطيع فيه أن تؤمن حتى تفهم.. عصر وُكِّلَ فيه إلى العقل وحده سلطة منح "جواز المرور" لكل معتقد، ولكل إيمان..

فهل تتعرض قضية الإيمان بالله للخطر، بسبب تحكيم العقل..؟؟

أما أنا، فأقول: لا..

وعبرَ الصفحات المقبلة. سأتمسك الطريق إلى الله في ظل العقل والبدية..

واعلم - إذا كنت ستمضي معي - أن الله مُباركٌ هذا النَّهج فلا تخف أن تستعمل عقلك في البحث عنه.

فهو سبحانه، حين دعا الناس إلى التعرف إليه - لم يقدم نفسه إليهم في ألغاز وأساطير.. بل قدم حقيقته عن طريق ما يشاهدون من آثاره، ودعاهم أن يستعملوا عقولهم في الاهتداء إليه..  
فعلیهم أنفسهم أن یكتشفوا وجوده..

وسبیلهم لهذا - النظر، والتدبر، وشحذ قُوَى العقل جميعاً. انظر هذه الآيات..

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ، فَيَنْظُرُوا..﴾

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ، فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ..﴾  
 ﴿مَنْ يَرْزُقْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ، وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ، وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ..؟؟﴾

﴿أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا، ؟ وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا، ؟ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ؟ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا..؟؟﴾  
 ﴿أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ، مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا..؟﴾  
 ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا..؟﴾  
 ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً، وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ، صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ..﴾  
 ﴿وَإِخْتِلَافَ أَلْسِنَتِكُمْ، وَأَلْوَانِكُمْ﴾

\* \* \*

ما معنى هذه التوجهات للناس؟..  
 معناه أن الإيمان تجربة، قبل أن يكون إذعانا.. ونظر عقلي: قبل أن يكون تلقيا..!!

وهي دعوة صريحة إلى البحث عن الحقيقة العليا من خلال ملاحظة الكون ملاحظة عقلية؛ وعملية..  
 ولقد ذكرتُ في كتابي "إنه الإنسان" كيف وكلّ الله للإنسان مهمة اكتشاف إيمانه ببارئه حتى يجيء إيمانه وليد إحساسه وحاجته؛ ووسائله.

وكيف ترك أبا الأنبياء، وأبا الأديان "إبراهيم" عليه السلام يعانى

بوا كير التجربة وحده..

ولو شاء الله، لبادأه الوحي، لكنه تركه يبحث؛ ويتأمل.

﴿فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكبًا، قال هذا ربي.. فلما أفل، قال: لا أحب الآفلين..﴾

﴿فلما رأى القمر بازغًا، قال هذا ربي.. فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي، لأكوننَّ من القوم الضالين..﴾

﴿فلما رأى الشمس بازغة، قال هذا ربي. هذا أكبر، فلما أفلت قال يا قوم إنى برئ مما تشركون.. إنى وجَّهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفًا، وما أنا من المشركين..﴾

هذا "أبو الأنبياء" يسلك إلى الله طريق العقل، والنظر، والتأمل، مقلبًا وجهه في السماء؛ مُمعنًا بحواسه في اجتلاء الغيب، مُتوسلاً في نطاق نسبي؛ بنفس الطريقة التي يسلكها العلم اليوم؛ وهى وضع الفروض، ثم مناقشتها وفحصها..

أجل.. من غير أن يكون يومذاك علم بالمفهوم الحديث للعلم - ترك الله رائد رسله وأنبيائه يسير وفق قواعد العلم في البحث عنه وكشف وجوده..

فالعلم يقوم على الفروض، لأنها تواجه العمليات التي تكشف عن الحقيقة..

ولكن الفروض كما يقول - جون ديوى - "ليس هناك حدود لمداها ولا لعمقها، فمنها فروض ذات مجال محدود تكتيكى. ومنها فروض تبلغ من السعة، اتساع الخبرة نفسها.."

يفترض "إبراهيم" أن الكوكب، هو الإله.. ويمضى مع هذا الفرض

يحلله، ويجربه، حتى إذا سقط الافتراض بين يديه عاجزاً عن إثبات الحقيقي الذى يسعى إليه، عدل عنه إلى فرض آخر.. وهو القمر.. ثم إلى فرض آخر، وهى الشمس لأنها أكبر، وأكثر نفعاً.. وإذ يسقط هذا الفرض الأخير، يكون اختبار آخر يُنمى نفسه داخل نفسه، فترى بصيرته ما لم ير بصره، وهو اختبار عقلى أيضاً.. بيد أنه لا يعمل داخل نطاق محدود من العقل؛ بل داخل العقل كله وينتهى إلى نتيجة تقنعه:

- ما دامت كل هذه القوى تختفى وتغيب.. والله لا يمكن إلا أن يكون كمالاً مطلقاً.. إذن فهذه ليست هى الله.. والله من وراء ذلك كله محيط..

﴿إِنى وَجَّهْتُ وَجْهى للذى فطر السموات والأرض﴾..!!

\* \* \*

حاولُ إذن أن تهتدى إلى الله بعقلك؛ ولا تخف الشك؛ ولا تخش الخطأ..

فاله يعلم مدى قصور العقل الإنسان؛ ومع هذا فقد ندب العقل لاجتلائه والتعرف إليه. فلتحترم وسائل هذا العقل؛ ولا تضيق به إذا قال: كيف يكون ذلك..؟

ولماذا لا يكون كذلك..؟

لا تضيق بما يلقاك من شك، فالشك طريق اليقين.

وقديماً سأل أبو الأنبياء إبراهيم ربه أن يريه كيف يحيى الموتى.

قال الله له: أولم تؤمن..؟؟

قال: بلى.. ولكن ليطمئن قلبى..!!

والله سبحانه يخبرنا عن تلك الأزمات النفسية العاتية التي كانت  
تَلِم برسله أنفسهم، فيقول سبحانه:  
«حتى إذا استُئِثِّس الرسل، وظنُّوا أنهم قد كُذِّبوا جاءهم نصرنا»..  
تأمل جيداً هذه الآية: «ظنوا أنهم قد كُذِّبوا»..  
فإنها تمنحك أملاً عريضاً باسمًا في عون الله حين تبحث عنه مهما  
تعتورك الشكوك، وظنون النفس..  
ولقد دعا الرسول أصحابه ألا يعبأوا بما يصادف بعضهم من شك  
قائلًا لهم: "هذا مَحْضُ الإِيْمَانِ..!!"  
فالشك، إنما ينبىء بوجود يقين، يحاول اكتشاف نفسه..  
بل إن الشك كثيراً ما يُفجِّؤُه زحام اليقين..!!  
فدع عقلك، يُنزل زُورقه في البحار المجهولة، ومادمت مخلصاً في  
رغبة الوصول إلى الحق.. فإن يداً خفية، ستقوده وتحميه - هي يد  
الله..  
وإن مرافى كثيرة؛ ستومضُ له بأنوراها الكاشفة.. هي مرافى الله  
المبثوثة على شيطان المجهول..  
اقترب.. لا تخف..  
وتقدم.. لا تُجفِلْ..  
إن الله معنا..!!

\* \* \*

هناك رواسب كثيرة، قد تسبب لك حيرة وقلقاً، كلما حاولت أن  
تستشرف الله من نافذة العقل..  
بيد أنك قادر على تنحية تلك الحيرة إذا ناقشت هذه الرواسب

الوجدانية، ورددتها إلى أصولها، وفحصت هويتها في ضوء التفكير  
السليم..

وأول هذه الرواسب: راسب الطفولة..

فحين كنت طفلاً، سمعت عن الله سبحانه وتعالى، أشياء كثيرة،  
وعرفت الله بأذنك..

كنت تسمع نعوته لله، تختلط فيها الحقيقة بالخرافة، فلا تميز بينها،  
بل يَلْقُفها وجدانك الغضُّ الساذج، وبصوغ منها تصورك الناشئ،  
وخيالك الطفل، صورةً لله تستقر في وجدانك وذهنك..

كانت هذه الصورة تستمدُّ معالمها مما يُلقى إلى السمع إلقاءً  
يجيء سديداً مرة، وغير سديد مرات، حيث تقوم علاقتك بالله على  
الخوف والإذعان..

بيد أنك تظللُ طفلاً.. فذات يوم كبرت، ونما عقلك، وربتُ معارفك،  
واشرأبتُ ثقافتك. ولم تعد الصورة القابعة في وجدانك عن الله كافية  
لإقناعك..!!

ومن ثم، يغشاك تيار من القلق الذهني..

لقد تصورتَ الله في طفولتك: أشبه ما يكون بملك فخم عظيم..

وفهمتَ أن كل شيء في الوجود تقع مسؤوليته المباشرة على الله.

فالمرض، والفقر، والنجاح، والفشل.. حتى عشرة القدم في الطريق

قدّر من الله، وكلمة سبقت..

وفهمتَ أن الله يتربص بك عند الموت، فلا تكاد روحك تغادر

جسدك حتى يتلقاها عذاب شديد. فزرعت في نفسك عقدة الخوف

والفرع من الله - ومن الموت الذي هو لقاء الله..!!

فلما كبرت، وطالعت، وتطلعت؛ أدت خواطرك على تراث الطفولة  
هذا، فأنكرت أكثره..

فإذا كان الله كمالاً مطلقاً، فلا يمكن إذن أن يكون هذا الملك  
الفخم المحفورة صورته على جدارن نفسك..

ولا يمكن أن يكون مسئولاً عن هذه الشرور التي تملأ الأرض..  
ولا يمكن أن يكون لقاؤه على هذه الصورة من القسوة مهما تكن  
خطايانا، لأنه أعلم بنا من أنفسنا..

وأيضاً لا يمكن أن يكون القدر الذي تلقت طفولتك بل وشبابك  
صورة مشوشة عنه - لا يمكن أن يكون كما يقال عنه، وراء كل حركة،  
لكل فرد، في كل زمان ومكان..

وهنا يتنازعك موققان عقليان..

موقف يدعوك إلى نبذ الصورة كلها دون أن تبحث عن بديلها  
الحق.. وهكذا، وبمتهى السهولة تصدر حكمك عن الله - بأنه لا وجود  
له..!!

وفي نشوة مخيولة من نشوات الغرور، تقول لنفسك: لقد تفوقت على  
الضعف والتأخر، اللذين يسميهما الناس "إيماناً" ولقد حللت  
المشكلة التي حيرت العالمين..!!

وموقف آخر، يدعوك إلى فحص الصورة كلها، وإخضاع ميراث  
الطفولة للفحص والتعليق - والتفكير من جديد في قضية الإيمان..

وهذه الطريقة الثانية، هي اللائقة بإنسان حتى حين يخطيء أو  
تبلى عنه الهداية، فلا يصل إلى شيء..

\* \* \*



أما العامل الثانى من العوامل التى تجعل بيننا وبين الإيمان شُقَّةً،  
وشقافًا، فهو التقديس..

إن الإيمان تقديس لا ريب..

وأنت فى سن شبابك، وبعد شبابك - يبرز شخصيتك مُحاولَةً فرض  
نفسها، وتوسيع نفوذها.. ويتململ عقلك ثم ينهض قائمًا، تدفعه غريزة  
قوية إلى أن يسأل، ويناقش، ويعقب، ويعارض، ويتبدى له التقديس  
نوعًا من الذل والخضوع لا يطيقه..!!

\* \* \*

وثمّت عامل ثالث، هو أننا تعودنا أن نسمع اسم الله مقروناً بالأمر  
والنهى..

فكل دعوة إلى الفضائل، وكل نهى عن الرذائل، إنما نَبَعًا - أول ما  
نَبَعًا - من الله..

ونحن بنى آدم عالم يموج بالشهوات مَوْجًا. وكل قوة تحاول صدنا،  
والحد فى انطلاقات غرائزنا. لا تُقَابِلُ منا بالارتياح على الأقل..  
وما دما نفهم أن الأخلاق والفضائل مصدرها الله.. أى أن الله هو  
الذى وضع الشكائم لنا، فهو إذن المسئول عما نعانيه من تناقض وبيل  
يجتاح علاقاتنا بهذه الأخلاقيات..

إذا استجبنا لها، مزقتنا الشهوة المكبوتة..

وإذا نكصنا عنها، حطّمتنا عذاب الضمير، والخوف من عذاب الله.

\* \* \*

وهناك عامل رابع يثبطننا عن الإيمان أيضًا.. ذلكم هو ارتباط  
الإيمان بالدين..

فالدين وإن لم يكن الصوت الأوحى الداعى إلى الله، إلا أنه أول الأصوات وأعلاها..

وإذا كان العلم، والفلسفة يمكن أن يدلأ على الله، فدلالتهم ضمنية..

أما الدين فهذه وظيفته، وموضوعه. وهو يكدرح فى هذا السبيل لا غير - سبيل الإيمان بالله، والدعوة إليه..

وإذ قد تعرض الدين لأزمات كثيرة، وتطلعت عليه كثرة هائلة من الأكاذيب؛ والخرافات.. فقد أصيب الإيمان معه وصار كثيرون من الذين يرفضون الدين، يرفضون الإيمان أيضاً.

\* \* \*

والعامل الأخير الذى أختتم به عوامل التشبيط عن الإيمان يتمثل فى فتوح العلم الهائلة، وغزوات العقل الظافرة..

لقد بهر العلم الناس بما كشف من أسرار، وبما فُض من مجهول، وبما اكتشف من قوانين..

أشبع العلم كثيراً من حاجة الناس إلى استكناه القوة الخافية التى تحرك النظام الكونى العظيم..

وبينما كانوا يردون إلى عالم الغيب كل ما يعجزون عن تفسيره - تقدم العلم، فأخذ فى وجدانهم مكان الغيب..!!

واتسعت الحياة اتساعاً لم يكن فى الحساب.. ولم يعد لدى أحد من سعة البال وسعة الوقت ما يسمح له بالاستغراق فى عبادة، أو فى تأمل ما وراء الطبيعة المحسوسة.. فمشاكل العيش تكاد تأخذهم حتى عن أنفسهم..

والآن، عليك أن تناقش هذه المشبطات التي سردناها، ليخلص لك طريق الإيمان لاحقاً مستقيماً..

فتقدم.. إن إنكار الله ليس من اليسر بالصورة التي تتوهمها، والتي يؤكدها لك أولئك الذين يزعمون أنهم عرفوا كل شيء، وأحاطوا بكل شيء علماً!!..

فإذا بدأت بالعامل الأول، تبين لك أن النموذج الذي تكون في طفولتك لله ليس هو الله.. بل والصورة التي تتخيلها لله في شبابك، أو في شيخوختك لن تكون هي الله.. إن الله "رب العالمين" .. وكفى..

إن كوناً عجيبياً يسير بهذه الدقة المتناهية في الحكمة والاتساق لا يمكن أن يكون وراءه الصدفة، ولا الخوآء.. لا بد من قوة حكيمة مدبرة..

هذه القوة هي - "الله رب العالمين" ..

ما لونه.. ما حجمه.. ما نشأته.. ما هويته..؟؟!!

ذاك أمر يعجز عن إدراكه جميع أجهزة "تحقيق الشخصية" في العالم!!

وإصرارك على أن تعرف الله بهذا الأسلوب الساذج يدل على أن طفولتك لا تزال تقودك..

لقد سئل رسول الله عليه السلام: كيف رأيت ربك..؟

فأجاب قائلاً: "نور أنى أراه"!!..

ولقد وضع السلف الصالح معياراً سديداً فقالوا: "كُلُّ ما خطر

ببالك، فالله بخلاف ذلك" ..

فاعرف الله، كبيراً لا تدركه الأبصار..

رحيماً، لا يقسو..

حكيماً، لا يضلُّ ولا ينسى..

أعطى كل شيء خلقه، وقانون وجوده.. ويقوانين الوجود هذه، وسنن الحياة والكون - تسير الأمور من غير أن يتحمل الله مسؤولية مباشرة عن تفاصيلها..

فالله - مثلاً - سخر الأرض والبحار والأنهار للناس جميعاً. وجعل منها رزقهم، وعليها معاشهم وجعلها تسير وفق قوانين ثابتة تُخرج بها الأرض زرعها، وتمنح بها الأنهار ماءها، وتحمل بها البحار فُلُكها..!!  
فإذا اقتسم الناس الأرض قسمةً جائرة، وامتلك واحد، آلاف الأقدنة، وعاش آخرون على الثرى..

وإذا تنافست الدول في امتلاك البحار، والسيطرة على منافذها، وبعَى قوتها على ضعيفها، فالمسئول هم الناس الذين لم يُحسنوا تقبُّل نعمة الله..

ولقاء الله خير على أية حال، وإذن فالموت الذى يهيب لك هذا اللقاء، لا يمكن أن يكون عذاباً وبيلاً..

فأقل مستويات الكمال لله، لا بد أن تفوق أعلى مستويات خلقه فى الكمال..

ونحن نرى بين خلقه أناساً تساموا بالرحمة وبالفضل حتى إنهم ليحسنون إلى من يسئ إليهم، ويعطون الرداء، لمن حاول أن يأخذ منهم الثوب.. وتهون عليهم التضحية بكل عزيز فى سبيل الأبيصروا عيناً تبكى بسببهم، أو جفناً يرتعش خوفاً منهم..!!

أفبيلغ الناس الذين هم خلق الله، هذا المستوى من الحنان والرحمة.. ثم لا يكون الله أعلى شأنًا، وأرفرَ حنانًا، وأغدقَ رحمة..؟؟

لقد وقف الرسول، وهو بشر - يواجه يوم الفتح أعداءه الذين قاتلوه، وأخرجوه من داره وبلده، ومثلوا في وحشية بجثة عمه، وعذبوا أهله وأصحابه، وجوعوهم - وأنزلوا بهم كل صنوف البغي والاضطهاد..

وقف تجاههم يوم الفتح، ونواصيهم كلها بيده، فما زاد علي أن حتى رأسه شكرًا لله، ثم رفعه ليقول للناس: "أذهبوا فأنتم الطلقاء" بل مضى يبالح في تكريمهم حتى ينسيهم أنهم مهزومون..!

أفيفعل هذا بشر، ثم تتوقع أنت أن الله هناك وراء قبرك يترقب مجيء روحك، ليصليها عذابًا وسعيرًا..؟؟!!

لقد خوَّفنا الدين حقًا، وكان مضطراً أن يفعل حتى يكبح الجموح، وينهته من ضراوة البغي..

أما رحمة الله، فهي الوعد الحق وهي الكلمة الأخيرة..

فاستقبل الله بهذا الفهم الذي هو حق لا عزاء..

عندئذ ترى الله بهجة الدنيا والآخرة..

وآنئذ لن يغيب عنك، ولن تبحث عنه؛ لأنك ستجده في كل ما حولك من حياة - في الزهرة الباسمة.. في النبت الطالع.. في شعاع الشمس.. في قطرات الغيث.. في السماء وفي الأرض..

ينتظرك على شوق.. ويقول في حديثه القدسي: "من مشى إلى شبراً.. مشيتُ إليه ذراعاً.. ومن مشى إلى ذراعاً مشيتُ إليه باعاً.. ومن أتاني يمشى أتيتَه هرولة..!!"

ستعرفه كما ينبغي أن يُعرف - رحيماً؛ لا حدود لرحمته. ودوداً لا

منتهى لمودته.. باراً لا يَغِيضُ بِرُهُ.. هو الحَنَانُ الجواد القوي..  
المتعالم..!!!

وستَأْسُ به روحك وعقلك.. وستصبح من فَرْطِ النشوة..

أهذا هو الله..؟؟ تبارك الله إذن.. ولتتقدَّس أسماؤه..

وليتبارك في علاه..!!

وستُحِسُّ أنك تسير في صحبة رَبِّ كبير - يبارك قوتك، ويرحم

ضعفك.. يشجعك على فضائلك، ويشفق عليك من رذائلك..

وفي كل حال، تطلُّ يمينه المباركة مبسوطة إليك، تدعوك للنهوض،

ويناديك: أقبل؛ ولا تخف، إنك آمن.. انهض ولا تتردد، إنى معك..

لا يُرَوِّعْكَ ضعف فقوتى سُدُّ لك..

لا يَحْزُنْكَ تخلفك، فقد تسبق العرجاء..

لا تَقْنَطْ من رحمتى، فرحمتى وسِعَتْ كل شىء..!!!

\* \* \*

وإذا ناقشتَ العاملَ الثانى من عوامل الشيطان، وهو ضيقك

بالتقديس، ورغبتك فى أن يتحرك وجودك فى جهاته الأربع؛ ويمارس

عقلك حقه فى اختيار أحكامه.. فاعلم أن هذا، هو ما يريدُه الله منك..

وإذا كنتَ تمتلئ بهجة وحبوراً، يوم ترى أطفالك الصغار يتصرفون

كأنهم رجال..

فاعلم أن الله سبحانه يرضى ويُسرُّ؛ حين يرى عباده، يتصرفون

كقديسين..

ولقد دعانا لهذا فقال؛ «كونوا ربانيين»..

ويخبرنا الدين كله أن الله أمر الملائكة المقربين بالسجود لآدم

الذى هو رمز النوع الإنسانى وعنوانه..

الملائكة الذين يسجدون لله.. يسجدون بأمر الله للإنسان!!

أى مغزى باهر لهذا التكريم؟!

إن تقديسك الله لا يعنى أنك نُطقة عمياء..

وإذا كان بعض الذين أنحلوا أنفسهم أوضاعاً دينية خاصة عَبْرَ

التاريخ، قد غالوا فى تقديس أنفسهم، فالله ليس كذلك ولا كذلك

رسُله الصادقون، وعباده الصالحون..

\* \* \*

أما ثالث المثبطات، وهو ضيقنا بالأمر والنهى.. واعتبار الله

مسئولاً عن قيودنا الأخلاقية..

فاعلم - أولاً - أن الحياة الإنسانية حين وَعَتْ نفسها، أيقنت أنها لا

تستطيع الاستمرار بلا أخلاق..

فهى - مثلاً - لكى تنمو وتطرُد، لا بد أن تمجد العدل، وتضع

الظلم.. تمجد الأمانة، وتسقط الخيانة.. تحترم الصدق، وتمتهن

الكذب.. وتقاوم القتل، والسرقه، والفاحشه..

والقانون الخلقى، ضرورة الحياة.

والكفر بالله، لا يُخلى من تبعات هذا القانون ومسئولياته..

وفى بعض البيئات التى نَحَتْ الإيمان بالله جانباً، لا يزال القانون

الأخلاقى سائداً.. والأوامر والنواهى على أشدها..

ذلك أن القانون الخلقى، يفرض نفسه فى كل زمان ومكان على

المؤمنين بالله، وعلى غير المؤمنين..

فإنكار وجود الله، لن ينجيك من العقاب الذى سينزله بك مجتمعك

إذا خُنتَ، أو سُرقتَ، أو انتهكتَ حرمة ثابتة.

وثانياً - فالقانون الأخلاقي، سواء جاء من الله أم من الناس. فهو حماية لك أنت، وسعادة لك أنت - ومصدره جدير بشكرك، خَلِيقُ بطاعتك..

لأنه لو لم يكن القتل - مثلاً - محظوراً، لأصبحتُ حياتك في مهبط كل يدٍ طائشة..

ولو لم تكن السرقة حراماً، لصار معاشك نهباً لكل يدٍ خالسةٍ أو ناهية..

ولو لم تكن العفة والفضيلة يرعاها الناس، لاضطربتُ حياتك وحياتهم اضطراباً كبيراً..

وهكذا، يمثل القانون الأخلاقي، بكل فضائله التي أجمعت البشرية على احترامها - يمثل سِياجاً يحميك، ويزود عنك..

فإذا كان من الله، أو من الناس، فهو نعمة كبرى - وبالشكر تبقى النعم وتدوم..

وكل تزمّت من الناس في فهم أخلاقياتهم، وكل تنطع وجمود بصاحبان تطبيق قانونهم الأخلاقي - إنما تقع مسئوليته عليهم لا على

الأخلاق، ولا على مصدر الأخلاق..

\* \* \*

فإذا واجهت المثبّط الأخير، وهو اختلاط الإيمان بالدين، اختلاطاً؛ عرّضهما معاً للتحريف، والمبالغة، والزيغ. وعرّضك بالتالي لأن تضيق بالإيمان، وبالدين.. فإنك واجد الحقيقة تسارع إليك لتصحيح لك الفهم، وتكشف لك مزايا الإيمان والدين..



لقد سبق الدين إلى الهتاف بوجود الله، ودعوة الناس إلى الإيمان به، كي يبلغوا بهذا الإيمان مستوىً لا ثَقًا من الخير ورفعة النفس.. ولكن الدين نفسه ابتلى بطبعاتِ أساءت استغلّاله، كما ابتلى بإضافات وخرافات تسَلَّت إليه، وأخذت مكانها بين شعائره ونصوصه، كما ابتلى بسوء الفهم من الأجيال التي بَعُدَت الشُّقَّة بينها وبين عصور الرسالة الأولى، سواء في ذلك المسيحية، والإسلام، والأديان الأخرى..

لكن الذى يفهم حقيقة الدين، ويستجلى روحه ولُبَّابه، لا يراه إلا خيراً.. وإلا يبدأ طولى أسدَّت للبشرية في مراحل تطورها وتقدمها أجل الخدمات وأسمائها..!!

أجل، عندما تقترب من روح الدين، لا من شكله الخارجى وحده - يَبْهَرُنَا النسق الموضوعى لرسالته ودعوته.. ونرى فيه قوة حافزة أكثر ما يكون الحفز، مُلهمة أبداع ما يكون الإلهام..

\* فدعوته للإيمان بإله واحد، لا يُحايِبى، ولا يظلم - إنما هى تحرير الإنسان من أرباب الأرض الذين طالما ساموا الناس خُسْفًا ورهَقًا؛ وملاؤا حياتهم فسادًا؛ وبغياً.. وإعلاناً لسيادة الرجل العادى..

\* وهُتَافه بخلود الروح؛ أعظم تكريم للإنسان، وأبهى تمجيد له.. إذ فحوى هذا الخلود، أن الإنسان ليس مخلوقاً عادياً.. بل إن له فى هذا الكون دَوْرًا مناسباً لخلوده..

\* وإعلان الدين أن الإنسان خليفة الله فى الأرض، ارتفاع بالإنسان إلى مستوى قريب من الإله ذاته، وإرهاص بأن هذا الذى نفخ الله فيه من روحه، سيذهب صاعداً حتى يبلغ فى معراج الارتقاء ما لا يخطر

بيال..!!

أى تفاؤل بمصير الإنسان، يفوق هذا التفاؤل..؟؟ وأى تمجيد له، يُسَامِتُ هذا التمجيد..؟؟

\* ودعوة الدين إلى الإيمان بالغيب واحترامه، تحطيم لقوى الحجر على المستقبل، ودفع بالعزم البشرى إلى الأمام، وتشجيع على اقتحام المجهول، وكشف ما وراءه من أسرار كبرى..

أجل، إن معنى الإيمان بالغيب، أن وراء ما نشاهد ونُحس، عوالم لا تنتهى أسرارها وعجائبها، وعلينا أن نؤمن بهذا الغيب، كواقع موجود.. وهذا الإيمان يقتضى أن نقضُ مغاليقه، والسير نحوه واثقين.. وكل نصر يحوزه العلم اليوم، وكل فتح جديد يهَمُّ به، لا يلقى من الدين الحق إلا التشجيع، والحض..

\* فإذا سار العلم مع "دَارُون" فى رحلته، محاولاً اكتشاف أصل الإنسان، ثم نادى بتطوير الإنسان من كائنات أدنى.. فسيحمد الدين هذا الصنيع، لأنه من قرون بعيدة أبلغ الناس رغبة الله فى أن يحاولوا بأنفسهم اكتشاف مبدأ نشأتهم، ونشأة كل شىء، فقال القرآن فى بعض آياته: ﴿قل سيروا فى الأرض، فانظروا كيف بدأ الخلق﴾..!!

\* وإذا حاول العلم أن يغزو الفضاء، ويتخذ سبيله إلى القمر مهْداً فيسجد الدين يباركه ويهيب به قائلاً: ﴿الله الذى سخر لكم السموات والأرض، وسخر لكم الشمس والقمر﴾..

\* وإذا أراد العلم أن يسعى لإطالة متوسط العمر الإنسانى للفرد: بل إذا حاول أن يرد الموتى إلى الحياة..؟ فإن الدين الحق لن يقول له كفرت، كما يحسب الجاهلون.. بل سيباركه كثيراً؛ لأن الدين مؤمن

بخلود الإنسان، وهو لا يرى الموت إلا قنطرة إلى حياة أخرى. وكما ننام ونستيقظ، فنحن كذلك نموت ونُبعث!! -  
 أجل، سيصفق الدين للعلم إذا ردُّ للموتى الحياة، لأن رسولاً من رسل الله فعل هذا، فأخبرنا الدين أن المسيح أحيى الموتى بإذن الله...!!

\* وإذا حاول العلم أن يبعث الحياة، في المادة غير الحية وهي محاولة تبدو عجيبة، أشد العجب، فإن الدين يشجعه، ويقول له تقدم، فإن إنساناً بمفرده صنع هذا..  
 ذلكم هو المسيح حيث يحكى القرآن الكريم عنه هذا فيقول:  
 ﴿ أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير، فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ﴾ ..!!

\* \* \*

الدين في حقيقته، قوة تدفعنا إلى الإمام.. وإذا وُجدَ بين نصوص الدين - أى دين - نص لا يزكى أغراض التقدم الإنسانى الرشيد، فليس معناه أن الدين ضد التقدم - وإنما معناه أن هذا النص، أو هذا الموقف، موقوف بزمانه..  
 والمتدين بحق هو الذى يدرك أن شعائر الدين لا تتمثل فى شعائر دينه وحدها.. وإنما تتمثل مع هذا، أو قبل هذا فى إدراك روح الدين. والعمل وفق هذا الروح..  
 وروح الدين كما قلنا، تحقيق أقصى أغراض التقدم الإنسانى وبلوغ الكمال الميسور للبشر فى حياتهم، وفى أنفسهم..  
 وكل عمل صالح فى هذا السبيل، عبادة، وصلاة.

وإذا أخذت الدين وفهمته على هذه الصورة، التي هي صورته الحق، فلن تحمله أوزار الأباطيل التي تطفلت عليه، وسترتفع في فؤادك كلمته، وتتجلى قيمته.. وبالتالي، ترتفع كلمة الإيمان، وتتجلى قيمة الإيمان!!

\* \* \*

إن الإيمان بالله في حقيقته يمثل آفاق التفكير الإنساني، وأسمى حوافز التقدم الانطلاق.  
والإيمان يقول للإنسان: «وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى». إلى ربنا المنتهى..؟؟

إذن فالله هناك - في أقصى الشوط الذي قُدِّرَ للبشرية أن تسيره..  
وإذن، فلكى نبغ هذا المنتهى، علينا أن نقطع الطريق كلها مهما تكن طويلة، ويابسة..  
ولكى نشاهد السر الأكبر، وهو "الله" علينا أن نمر بأسرار كثيرة، ونفضها!!  
فالسير إلى الله، سير إلى كل الحقائق التي تنتظرنا لنفض مغاليقها ونكشف كُنْهها.

من أجل هذا، كان العلم في حقيقته ديناً..  
وهذا العالم العاكف على مُخْتَبِرِهِ، ليس أدنى منزلة من العابد المتبتل في محرابه..!!

\* \* \*

بانتها لنا من مناقشة هذه الرواسب التي تجعل الإيمان ثقيلًا على النفس، بعيداً عن العقل، نعود إلى العقل ذاته لنرى هل هو مع الإيمان

بالله أو ضد الإيمان بالله..

وأنت تعلم، أن ثمتَ فارقاً بين العقل، والعلم.. غير أننا هنا نعنى بالعقل - الحركة العقلية - كلها بما فيها العلم نفسه..

والآن نسأل: هل نفى العقل وجود الله..؟؟

أنا لا أكتب بحثاً فلسفياً، أو عظة دينية.. إنما نحاول معاً اجتلاء معالم الإيمان في أقرب نقاطه إلى الوضوح واليسر..

ونجيب على سؤالنا فنقول: إن العقل لا ينفي وجود الله، إذا أخذنا العقل بمفهومه الصحيح.

إن أحكام العلم تستمد صدقها من حواسنا، ومن التجربة العلمية التي نجريها في معاملنا.

والأحكام التي تجيئنا عن هذا الطريق، تكون موضع يقيننا، ونسميها في إجلال.. المعرفة..

وأهم مميزات هذه "المعرفة" أنها ضد الأحكام النهائية..  
تذكرُ هذا جيداً..

فإذا جاءنا من يُصدر في قضية الإيمان حكماً نهائياً فيقول: ليس هناك إله؛ فإن العلم نفسه، يقول له: هذا غرور..!! لأن إصدار مثل هذا الحكم يتطلب أن تكون قد عرفت الحقيقة كلها.. وعرفت جميع المجهول الذي سيظل سكان هذا الكوكب ملايين السنين يكشفونه جزءاً، فجزءاً..

وسيقول له العلم أيضاً: إننا نستمد صدق أحكامنا من التجربة..  
والمعامل لم تشهد حتى اليوم تجربة مادية تنفي وجود الله..!!  
فالمعرفة بمفهومها العلمي، تتورع عن نفى وجود الله..

لأنه إذا كان العقل لا يؤمن إلا بما يثبت وجوده.. فواجبه ألا  
يجحد إلا ما يثبت نفيه..

فمتى أثبت العلم نفي الله..؟؟

إننا نحتكم إلى العلم بتفكيره التجريبي الواقعي..  
وبالطريقة التي أثبت بها حركة الأرض، وتحول المادة، عليه أن  
يثبت نفي وجود الله..

وإذا لم يفعل، فلا أقل من أن نحترم دوماً ذلك الهاتف الأبدى  
الذي لا يفتأ منذ وجد الإنسان على الأرض، يصيح بنا. هناك إله..  
وهذا الهاتف نفسه، حقيقة قادمة من العقل ومن المعرفة بأصدق ما  
للعقل وما للمعرفة من دلالة..

فالعقل الإنساني، ليس هذا الجزء الذي نفكر به ونبحث، والذي  
يطل على الكون من نوافذ حواسنا الخمس..

هذا جزء من عقلنا الإنساني لا غير - وثمة لهذا العقل مناطق أخرى  
تكشفت لبعض الناس الأفاذ، وبصروا بها ما لا تبصر الكافة..

هناك مستويات أخرى للتجربة - غير هذا المستوى الذي وصلنا  
إليه والذي نباشره في معاملنا - وهي تعطي حدساً صادقاً، كثيراً ما كان  
بمثابة الإشارات الضوئية التي أضاعت لتجارب العلم طريقها..

انظر..!!

منذ ألف سنة كان هناك أفراد، شارفوا هذه المستويات الباطنة من  
التجربة العقلية، فنادوا بحقائق عُدت في أعين معاصريهم خرافة  
ووهماً..

قال "أنا كُسا جوراس": إن القمر أرض فيها جبال ووديان، وإن

الشمس والكواكب، أجرام نارية مُتكوّرة.. فنفاه أهل أثينا.  
وبعد ألفين وأربعمائة عام اكتشفنا صدقه..!!  
وفى ذلك الزمان البعيد أيضاً قال "ديمقريطس": إن هذه الذرات  
ليست هباءً.. ولكنها طاقات هائلة - وفى كل ذرة شمس كشمسنا هذه..  
وبدا فى أعين الناس مُخرقاً.. ولكن بعد ألفين وأربعمائة عام أيضاً  
اكتشف العلم صدقه.. تُرى بأى أسلوب أدرك هذان الرجلان، هاتين  
الحقيقتين؟؟  
بالحواس الخمس..؟؟  
إن الحواس الخمس، لا تستطيع وحدها اكتشاف ما فى الذرة من  
هول، و طاقة..

أم التجربة العلمية داخل المعمل..؟؟  
لم تكن لهم يومئذ القدرة على تجربة المعمل.. ولم يثبت أنهم قالوا  
ما قالوا على ضوء تجارب أجروها فى معامل مَشيدة.. ولو كانت تجربة  
علمية مُشاهدة، لما أنكرها الناس، واتهموا أصحابها بالإلحاد،  
وطاردوهم خارج الديار..  
إذن هناك عيون أخرى للعقل تتفتح فى بعض العقول المهيأة، فتطالع  
المجهول، كما يطالعه المعمل اليوم..  
وهناك إذن مستويات أخرى للتجربة الإنسانية لا تُتاح لكل الناس،  
بيد أنها تعطى أحكاماً صادقة صدق التجربة العلمية نفسها..!!  
وعند هذه المستويات العالية من التجربة استطاع ناس منا، أن  
يُعاينوا حقيقة الإيمان، ويهتفوا بوجود الله..  
فلماذا لا نصدقهم..؟؟

ولماذا نحاول أن نقيس الله بنفس الموازين التي نقيس بها أنفسنا..  
لماذا نحاول قياس حرارة الشمس بـ "ترمومتر عادى"؟!  
إن فى حياة كل فرد إنسانى تجارب كثيرة يحس من خلالها وجود  
الله، حتى لكأنه يراه..  
ولكن هذه التجارب العابرة، والأحاسيس الخافتة، تدور فى  
المستوى العادى لشعورنا وتفكيرنا..  
يبد أن رَعِيلاً عظيماً من البشر عانوا التجربة فى مستواها الأعلى،  
وتحدث الله إليهم من خلالهما..  
أولئك هم المرسلون والأنبياء والهداة..  
فهل من حقنا أن نفرض تصديقهم، ونتنظر حتى نرى ما رأوا، وحتى  
يتحدث الله إلينا مثلما تحدث إليهم..؟!  
إن أمورنا لا تسير على هذا النحو أبداً..  
فنحن لم نر الأشعة (تحت الحمراء)، ومع هذا، نؤمن بوجودها لأن  
أفراداً منا اكتشفوها وأخبرونا بوجودها..!!  
وأنت لم تفجر الذرة.. ولكنك تؤمن بكل أخبارها، لأن أفراداً من  
العلماء فجروها وأطلقوا طاقتها..  
وأنت لا تحس أدنى إحساس أن الأرض تدور، ومع ذلك تؤمن  
إيماناً مطلقاً بدورانها، لأن العلم قرر دورانها..  
وأنت لم تر الزهرة، وعطارد، والمريخ.. بل ولا المجموعات  
الشمسية الأخرى التى تعتبر مجموعتنا الشمسية كلها بالنسبة إليها  
برتقالة صغيرة.. ومع هذا فأنت تؤمن بوجودها لأن غيرك ممن تشق بهم  
رآها من وراء عدسات المراصد..



وأنت لم تقس سرعة الضوء، ومع هذا تؤمن بأنه يسير بسرعة  
"١٨٦٠٠٠ ميل، فى الثانية الواحدة..

فلماذا تصدق كل ذلك، وأنت لم تكتشف صدقه بنفسك، إنما  
اكتشفه لك آخرون..؟؟

قد تقول: إن الأمر مختلف، لأنك تستطيع التأكد من صحة هذه  
الأشياء إذا أخذت مكانك فى أى معمل، أو مرصد..؟

وهذا حق، لكن ليس فى الأمر خلاف، فأنت أيضاً تستطيع أن  
تتأكد من صدق الذين حدثوك عن الله. وإذا أخذت مكانك فى  
معاملهم ومراصدهم..!!

ومعاملهم ومراصدهم من نوع آخر، نوع يستطيع كل إنسان أن  
يمتلكه إذا جلا رُوحه وأيقظ كل قُوى نفسه الفاضلة واكتشف المناطق  
المخبوءة من عقله وبصيرته..

إن الإيمان الدينى، كالإيمان العلمى - كل منهما نوعان:

إيمان رؤية.. وإيمان تصديق أو مُحَاكاة..

فالإيمان الرؤية فى العلم، هو إيمان العلماء الذين اكتشفوا  
بأنفسهم..

وإيمان التصديق فى العلم، هو إيمان ملايين البشر الذين لم  
يمارسوا التجربة بأنفسهم، لكنهم صدقوها..

كذلك إيمان الرؤية فى الدين، هو إيمان المرسلين، والهداة الذين  
عابنوا وشاهدوا، وذاقوا..

وإيمان التصديق فى الدين، هو إيمان الكافة..

فإذا رضيت أن تؤمن بحقائق العلم، إيماناً مُصدّق، لا غير، فليَمَ لا

تؤمن بالله إيماناً مُصدّقاً أيضاً..؟!  
هل أنت مصمم على أن يكون إيمانك بالله إيمان رؤية، وبقين  
ومباشرة..؟؟  
حسن هذا..

فاصنع إذن ما يجب صنعه حين تريد أن يكون إيمانك بحقائق  
العلم إيماناً مباشراً..  
مارس تجربة الإيمان بنفسك.. هَيِّئْ لها قلبك ووعيك، وابذل جهوداً  
مثابرة.. وسوف يتجلى لك الله، كما تجلى لغيرك.

\* \* \*

إن آلاف العصور والأحقاب التي عاشتها البشرية فوق هذه  
الأرض.. شهدت باستمرار حنيناً دائماً من الناس، وتطلعاً مستمراً،  
ومحاولات كادحة، للاتصال بالله..  
إن في كل فرد منا، وفي نوعنا الإنساني كله نزوعاً يذكّرنا دائماً بأن  
لنا لنا خالقاً وبارئاً ومنشئاً..

أَو لا يدل هذا النزوع على شيء..؟؟  
أَو لا يدل تصميم الناس مُذْ وجدوا على أن هناك قوة عليا، عليهم  
أن يبحثوا عنها، ويشدوا رحالهم إليها.. ألا يدل هذا على شيء..؟؟  
سيقال لك، لقد ظل الناس منذ وجدوا مصممين على أن الأرض  
مركز الكون حتى جاء يوم تخلّوا فيه عن زعمهم هذا..  
أجل.. ولكنهم تخلّوا عن زعمهم، لأن يقيناً من صنع عقولهم كشف  
لهم الحق، وعرفوا به حقيقة وضع الأرض.  
فهل قدّم العلم يقيناً مُماًثلاً. يدحضُ إيمانهم بالله..؟!!

كلا.. بل إن العلم كلما أمعن فى فتوحاته؛ ازداد انبهاراً. وازداد  
تواضعاً، وازداد إيماناً بأن ما يجهله أكثر مما يعلمه. وأن الأسرار  
الكبرى التى تتكشف له أكبر من أن تكون تلقائية النشأة، عفوية  
المسير..!!

وبعض العلماء الذين تعجلوا الحكم، لم يزيدوا على أن أخذوا  
كل الصفات المنسوبة لله، ونسبوها للمادة..!!  
فهم لا يؤمنون بالصدفة كمحرك للكون..  
وهم يرون فى الدقة الفذة المعجزة التى يسير بها الكون ذكاء،  
وحكمة، ومقدرة..

هذا الفضاء المملوء بالمجموعات الشمسية، كُـلُّ فى فلكٍ  
يسبحون!!

وهذه الأرض التى انفصلت من الشمس قطعة لهب تتوهج.. ثم إذا  
هى تدور حول نفسها مرة كل يوم، وحول الشمس مرة كل عام..  
وإذا من هذه الدورات؛ يكون ليل، ونهار، ويكون صيف وشتاء،  
وربيع، وخريف..

ثم هى، ينفصل منها جزء آخر؛ يدور حولها فى تماسكٍ ومشاركة،  
ليصير قمراً لها..

لماذا وكيف تم هذا التوافق الهندسى الرياضى..؟؟

وأية قوة وراءه..؟؟

إننا نبصر جهاز الراديو، فنذكر بداهة أنه تصميم قوة عاقلة -  
الإنسان..

فهذا الهواء، هذا الأثير.. هذه الموجات الكهربية التى تنقل

الصوت، أليس لها هي الأخرى مُصَمَّم..؟؟

هذا الكون.. هذا الإنسان المعجز وحده.. أليس له مُصَمَّم..؟! يقولون: المادة.. حسن، فهل تصنع المادة كل هذا خبط عشواء أم أن معها بصيرتها وقدرتها..؟؟

لماذا إذن، يسهل علينا الإيمان بمادة علمية قادرة، ويصعب علينا الإيمان بإله عليم قادر..!!

لماذا نسيغ القول بأن المادة خلقت نفسها ووضعت قوانينها التي تُذهلنا حكمتها ودقتها..

ثم لا نسيغ الإيمان بوجود قوة أخرى موجودة بذاتها..؟! لماذا تهضم عقولنا هذا. وترفض ذلك..؟؟!

الحق أن الفاصل بين الإيمان والإنكار، فاصل وهمي..  
والحق أن الذين يعطون المادة كل هذا السلطان، لم يغيروا من الحقيقة إلا اسمها..!!

إنهم نقلوا صفات الله إلى "المادة" .. وهذا كل ما فعلوا..!!  
التمس أنت طريقك إلى الله، وآمن بالله، فإنه حق..  
لا تحسبن الإيمان "رجعية وتخلفاً" ..

فالرجعية، هي الإيمان بالخرافات التي تطلعت على الإيمان الحق، وعلى الدين الخالص عبر القرون..  
أما الإيمان في حقيقته؛ ففوز..  
وأما الدين في روحه؛ فهداية..  
لا تخلني قديساً، أو داعياً كرّس حياته لدعوة الإيمان والدين..  
أبدًا. أنا مجرد إنسان، يحب الناس كثيراً ويرجو لهم الخير جميعاً..

وحين يلمح طريقاً يحسبها مفضية إلى خير فإنه يشعر بغبطة دافقة إذ يدل على هذه السبيل كل من يلقاه..!!  
 وفي تجارب حياتي، وحيوات الآخرين، التقيتُ بما ملأ روعي يقيناً بأن لنا إلهاً كبيراً..  
 وهذه التجارب ليست هي التي تخلق الإيمان بالله - ولكنها توظف حقيقة الفطرة الكامنة في كل منا، والتي فطر الله الناس عليها..  
 من أجل هذا، فأنا أدعوك إلى خيرٍ جليل، حين أقول لك، ولَّ وجهك شطر الله

\* \* \*

إن الإيمان بالله، سِمَةٌ من سمات الامتياز العقلي، والاستقامة الفكرية.. والإيمان بالله، سمة من سمات الاستنارة، وسعة الأفق..  
 ذلك أن الإنسان المثقف المستنير، لا يرحب بالأحكام التي تحجز على مستقبل الحقيقة.. وهو يؤمن بالغيب، والغيب في التحليل النهائي له، هو كل ما لم يتكشف لنا من "الكُلِّي" بعد..  
 والله الذي تخفق به مشاعرنا وضمايرنا منذ وجدنا على هذه الأرض لا أقل من أن يكون جزءاً من ذلك الغيب..  
 فإذا أردت أن تُنحى وجوده بحركة من أصبعك.. مهملاً بهذا حق الغيب في أن تحترمه حتى يتكشف لك. فإنك بهذا تدل على حاجتك إلى الاستنارة والفهم، واستقامة التفكير..!!  
 والإيمان بالله، ملاذ.. ولا أقول عزاء..  
 وأكثر الناس جبروتاً وقوة، تمر به تلك الأوقات التي يفرع فيها إلى الله، فيجد الأمن والراحة من آفات نفسه، ومخاوف حياته..

فإذا جعلت "خطأ الطول" لحياتك، هو الإيمان المزدهر بالله، فإنك مهما تستجيب للخطأ، وللضعف، وستظل محتفظاً برباطة جأشك، وسلامة تقديرك، لأنك موصول الأسباب بالقوى الأعلى، ولأن يده الحانية التي تتبعك من غير أن تراها، ستُمسك بناصيتك في الوقت المناسب، وتدفع عنك ما يتربص بك من سوء وشر..!!

إن جميع الهداة الذين دعونا لكي نُؤمن بالله، وألحوا في دعائهم لم يكونوا يعملون لصالح الله، بل لمنفعة البشر، فالله سبحانه لا يزيد بإيمان الناس قوة، ولا يلحقه من جحودهم وهن..  
أرأيت، لو اجتمع أهل الأرض جميعاً، وأنكروا وجود الشمس - أضرار الشمس إنكارهم هذا..؟؟

كلا.. وستظل هي تبتسم لهم مُرسلة نعماءها وضيائها..!!  
ولكن، لو أن ناساً من الناس، قاطعوا الشمس، وحرموا أنفسهم حرماناً كاملاً من التعرض لضوئها وأشعتها، ودفئها وقضوا أعمارهم كلها في سرايب غائرة..  
أليسوا بعملهم هذا يُلحِقوا بأنفسهم - لا بالشمس - أفدح الكوارث..؟!

كذلك الذين يحرمون أنفسهم نعمة الإيمان بالله، ويحرمونها بالتالي مُعطيات هذا الإيمان، ويغلقون النوافذ التي تهب الإيمان منها بُشراً ورحمة، ويعزلون وجودهم عن مصدر القوى والحياة!  
- الإيمان بالله طاقة يأخذ منها المؤمن ما يشاء، لما يشاء.  
وهذه الطاقة لا تمنح القوة مجرد القوة.. بل هي تمنح القوة العادلة..  
وهذا خير ما يدركه إنسان حي..

أجل، القوة العادلة، هي ما يُفيئه الإيمان بالله، أوّل ما يُفِيء..  
 لأن الطيش والبغى، يجيئان ثمرة خراب داخلي، تعانيه نفس  
 الطائش الباغي.. أو ثمرة غرور يزجيه سوء تقدير لنفسه ولحقيقته..  
 والإيمان ينفي هذا عن النفس الرشيدة المؤمنة، كما ينفي الكبر  
 خبث الحديد.. وذلك بما يملأ به الأُفئدة أمنًا وثقة، وبما يقتضيه من  
 منهاج للسلوك وللحياة صادق وأمين..

فالإيمان بالله، ليس مجرد تصديق نفسي.. بل هو قوة دافعة لحياتك  
 كي تسير وفق القيم المثلى التي تحقق لجنسنا البشري سعادته وتفوقه..  
 والإيمان بالله، لا يرفع من مستوى حياتك الشخصية وحدها بل هو  
 يرفع من مستوى الحياة كلها..

لأن الإيمان - واذكر دائماً أننا نعني إيمان الحقيقة، لا إيمان  
 الخرافة..

أقول: لأن الإيمان يجعل من الحياة كلها عائلة واحدة كبرى يراها  
 ربها وبارئها..

ويصنع من الحياة الإنسانية بصفة خاصة، قلباً واحداً يؤدي عمله في  
 وحدة، واتساق..

فالإنسان والحياة، غاية من غايات الإيمان، بل من أكثر غاياته  
 أهمية وجلالاً..

فالإنسان، خليفة الله..!!

والحياة؛ بستان الله..!!

وواجب كل فرد أن يعمل مع الله في بستانه حتى يظل نامياً مزدهراً  
 - وأن يبذل من نفسه حتى يحقق نوعه الإنساني كل ما يقضيه مستوى

الخلافة عن الله من تفوق واكتمال..

- والإيمان بالله يوسع نطاق وجودنا بما يُوحيه من ثقة.. ويوطد دعائم آمالنا في المستقبل بما يهبه من تفاؤل..

فالإيمان بالله سبحانه، يعنى التفاؤل والتسهّل، لأن اليأس وليد العجز وتجرّع الهزيمة..

أما المؤمن الذى يستمد من الله عوناً دائماً، فهو أبعد شأواً من أن يُكبّل العجز ساقيه.. وهو حين تقع به هزيمة، لا يحسّ مرارتها لأنه لا يتجرّعها ..

ومن ثمّ فهو متفائل دائماً، ينفر من اليأس، لأن الإيمان يرى اليأس كفرةً.. ولأن كلمة الله تناديه دوماً: ﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾..!!

إننا لا ندرك جمال الحياة وسُمّوها إلا فى تلك الأوقات التى نحس فيها أننا نملؤ الزمان والمكان - وأننا مسيطرون تماماً على أنفسنا، وعلى حياتنا، وعلى مصايرنا.. وأننا أحرار تماماً فى اختيار مباحثنا وفضائلنا وأخطائنا..

ومن عَجَبٍ، أنه لا شىء يتيح لنا كل ذلك مثلما يتيح الإيمان بالله حسب المفهوم الصحيح لهذا الإيمان..  
نحن نحسب الإيمان قيّداً وغللاً ..  
وهو ليس كذلك أبداً..

إنما الإيمان إطار تتحرك داخله حياتنا دون أن نحس بضيق أو انكماش - إنه إطار واسع، لا حدود له، لأن الله الذى هو موضوع هذا الإيمان، لا حدود تحدّه، ولا تُخومُ هناك تقف عندها رحمتُه،



وقدرته، وهباته..!!

\* \* \*

وكما قلتُ لك من قبل: اختر حياتك، وانسج بيديك بُردتها..  
أقول لك هنا: اختر إيمانك، واجمع بنفسك وثاقه..



www.alkottob.com

www.alkottob.com

## الوصية العاشرة

وِطَّدْ مَسْئُولِيَتِكَ بِالْحَرِيَّةِ..  
وَحَصِّنْ حَيَاتِكَ بِالْعَدْلِ..  
وَاتْرِكْ لِلوُجُودِ شَذَاكَ..!!



www.alkottob.com

بين الناس والحياة ميثاق، لا مناص لهم من احترامه والوفاء به إذا أرادوا أن يحيوها..

ميثاق استمدَّ نصوصه من ضرورات الوجود..

وأول سطور هذا الميثاق حقيقة تقول: "عيشوا أحراراً" .. والإنسان هنا، فوق أرضنا هذه، ووسط عالمه هذا، ليس شيئاً عابراً.. ليس ضيفاً عارضاً، ولا واحداً من أبناء السبيل..!

إنما هو خليفة الله، من غير مبالغة في شأنه، ولا مجاملة له..

هو خليفة القوة القادرة الحكيمة التي يحيا الكون كله في كنفها، ويمضى في حركته وفق قوانينها..

هو أستاذ حياته، وصانعها، والمسئول عنها..

وهو مسئول عن الكوكب الذي سادّه، وأمسك بزمامه.. مسئول عن الحياة التي حملت اسمه، وصار اسمها "الحياة الانسانية" .. مسئول عن مصيره كنوع متميِّز، اختار طريقه، ولن يُسمح له بالتقهقر، أو بالهروب..!!

ومسئولية النوع.. المسئولية الانسانية كلها، تتكون من مسئوليات الأفراد الذين ينتظمهم الجنس البشرى..

ومن ثم، كان لكل فرد مسئولية مزدوجة.. مسئولية تجاه مصيره،  
ومسئوليته تجاه المصير الإنساني جميعه..

وكل فرد يحمل مسئوليته تجاه نفسه، يحملها فى نفس الوقت تجاه  
البشر كلهم..

والأسلوب الذى يختاره لحياته، يؤثر تلقائياً، وبنسب متفاوتة، فى  
حياة النوع بأسره..

وامتزاج مسئولية الفرد عن نفسه بمسئوليته عن نوعه، يرفع من  
مستوى هذه المسئولية، ويضاعف من تبعاتها وخطرها.. الأمر الذى  
يتطلب توفير الفرص اللازمة للقيام بهذه التبعات..  
"أنت مسئول" ..!!

عبارة تبدو خفيفة، سريعة، عابرة.. ومع هذا فليس فى الحياة  
الإنسانية كلها ما هو أثقل ميزاناً، وأخطر شأنًا من مدلول هذه  
العبارة..!!

\* \* \*

ولكى تباشر مسئوليتك عليك أن تتحرك، وتعمل.. وقبل الحركة  
والعمل عليك أن تفكر، وتقرر، وتختار..  
وأنت لا تعمل وحدك. ولا تفكر وحدك..  
إنما يتصل تفكيرك بتفكير الآخرين، وتستمد جهودك العون من  
جهودهم..

من أجل هذا، كان توفير الفرص لإنجاز مسئوليتك، يعنى فى نفس  
الوقت، ولنفس السبب، توفيرها للآخرين جميعاً..

ولكى يجيء تفكيرك سديداً، واختيارك رشيداً، ينبغى أن يكون

السُّداد طابع التفكير فى بيئتك كلها. فإن لم يكن، فلا أقل من أن تكون  
 فرصة مهياة لمن يقدر على اهتبالها والانتفاع بها ..  
 وفى مجال المسؤولية بالذات، لا شىء يهبُّ السداد مثل الحرية.  
 يفكر الناس أحراراً .. ويختارون لأنفسهم أحراراً .. ويؤدون  
 واجباتهم أحراراً ..

\* \* \*

إذا كنت مسئولاً عن إطفاء حريق، فيجب أن تتمكن من استعمال  
 المضخات.  
 وإذا كنت مسئولاً عن إنشاء حديقة، فيجب أن تكون حراً فى  
 اختيار بذورها، وعرسها.  
 وأنت مسئول عن الحياة فى نموذجها الفردى الذى هو أنت. وفى  
 مجالها العميم المتمثل فى كل مظاهرها.  
 من أجل هذا، يكون حَقُّك فى اختيار قراراتك حقاً ضخماً، ضخامة  
 مسئوليتك نفسها. وحقاً خالداً، خلود الحياة ذاتها ..!!  
 فوطد مسئوليتك بالحرية ..  
 "الحرية" ..

انظر جرس الكلمة وشفافيتها ..!!

إن لها رقة النسيم ولطفه ..!!

وكأن ذلك كذلك، ليدل على فرط بداهتها، وقداستها.!

أجل .. إنها من الضرورة، ومن الحتمية، ومن البداهة، بحيث لا  
 تحتاج إلى الكلمات الضخمة كى تعبر عنها .. لا تحتاج إلى أى من  
 وسائل التوضيح والإثبات .. حتى الكلمة التى تدل عليها .. بسيطة بساطة

الحقيقة.. بدهية بداهة المطلق.. رقيقة، عذبة، وديعة..!!  
 وإنما كذلك فعلاً.. ومن عائد القول أن يحاول أحد توكيد حق  
 الأحياء في الحرية..

فمادمتَ حياً، فأنت حر...

ومادمتَ مسئولاً؛ فالحرية أقدسُ حقوقك..

ذلك أن المسؤولية تجد نفسها، وتحقق كيانها حين تعيش وتعمل  
 في مناخها الطبيعي، ومجالها الحيوي، الذي هو "الحرية" ..

ولقد أتى على الناس حين من الدهر، كانوا يمارسون مسئولياتهم  
 في ظل الخضوع.. وأيامئذ، كان التأخر يأخذ بزمام القافلة الإنسانية  
 إلى الوراء..

ولم تكن القافلة تُفلت من قبضة التدهور والانحطاط، إلا حين يظهر  
 فيها فرد أو أفراد يباشرون مسئولياتهم في ظل الحرية، ويدعون الناس  
 إلى هذا النهج القويم..

عندئذ، كانت المسؤولية الحرة تقود القافلة إلى مشارف الحقيقة،  
 وكانت شمس المعرفة تغمرها بالدفء والضياء..

إذا باشرتَ مسئولياتك في ظل الخضوع والعجز فإن العُقم يغتال  
 حياتك ومواهبك. ويجعل منك نفاية آدمية..

أما إذا باشرتَها في ظل الحرية وجمّأها، فإنك ستكون لا ريب علامة  
 من علامات الرشد الإنساني في قومك وبيئتك..

ونبذُ الخضوع، لا يعنى نبذُ القانون..

كما أن العمل مع الحرية، لا يعنى التشيع للفوضى..

ذلك أن القانون العادل، تنظيم لحركة الحرية وسلوكها.



ومواد القانون. أشبه ما تكون بعلامات المرور..  
 إن جهاز المرور لا يجردُ الراكب من عربته، ولا الماشى من قدميه..  
 وهو لا يتحكم في المشاة، ولا الركبان، مُحاولاً وقف حركتهم، لكنه  
 ينظم العبور والتلاقي حتى يمضى كل فى سبيله آمناً مُعافى..  
 كذلك القانون العادل مع الحرية..  
 إنه ينظم استعمال كل لحرية دون أن يسلب منها شيئاً..  
 فاحترامك هذا القانون لن يكون إذن خضوعاً؛ إنما يكون استمراراً  
 لمباشرتك حريرتك.

أما الخضوع، فهو الاستسلام الذليل لكل تحكّم غير مشروع.  
 وكل مسؤولية تعبر عن ذاتها فى ظل هذا الخضوع. تتلوث بآفاته  
 ويصيبها من نزواته، فتضطرب الأمور بين يديها، ولا تثمر سوى أعمال  
 هزيلة، وحطام يطفو فوق العباب..!!  
 فلا تغرس أعمالك؛ ولا تبدّر مسؤولياتك فى تربة الخضوع أبداً..  
 وتعامل دوماً مع الإقناع، لا الإذعان.. ومع القانون لا التحكم..  
 وإنك على هذا لقادر كائناً ما كنت؛ وكائناً ما يكون عملك.. أطع  
 القوانين التى وضعت لصالحك..!

وامزج الطاعة بالقانون، مع الولاء للحرية مزجاً يجعل منهما شيئاً  
 واحداً يتحول إلى قوة تدفعك وتهدى خطاك..  
 وأسهم بلا تردد فى أن تظل قوانين بلادك صالحة وعادلة..

\* \* \*

قلتُ لك أيضاً، إن العمل مع الحرية لا يعنى مُسايرة الفوضى.  
 فطبائع الأشياء تعلمنا أنه لا سبيل - أى سبيل - لأن تنعم بحريرتك إلا

إذا تركت الآخرين ينعمون بحرياتهم..

فلكى تحتفظ بحريتك عليك أن تمكن الغير من الاحتفاظ بحريته.

لعلك تعرف قصة الرجل الذى كان يجلس إلى جوار آخر فى حديقة فتناءبَ وبسط ذراعيه حتى صكَّتْ أصابعُ يده أنفَ جليسه.. فلما

استهجنَ الجليس حركته هذه. قال له: أنا حر..

هنالك أجابه الآخر. أجل. أنت حر. ولكن حرية يدك، تنتهى حيث

تبدأ حرية أنفى..!!!

إن هذه الطريقة أصدق تصوير لسلوك الحرية..

فحريتك يجب أن تسلك طريقها فوق الأرض لا فوق رؤوس

الناس..!!!

وحريتك، يجب أن تعمل فى وفاق تام مع حريات الآخرين.

\* \* \*

واذكر دائماً أن الحرية معراج الحياة. وليست "الشماعة" التى

تُعلق عليها الأخطاء..

إذا تورطت فى خطأ، أو نقيصة، فلا تقل: أنا حر، فليست الحرية

صندوق قمامة، بل كن شجاعاً، وقل أنا مخطىء. وكن أكثر شجاعة،

وحاول تصحيح خطئك..

إن شر ما يلحقه إنسان بنفسه، وبالناس؛ وبالحرية من أذى، هو

التبجح بالخطأ واصطناع الحرية "مشجباً" للردائل والأخطاء، وقفازاً

تخفى به الأيدي الآثمة جرائمها..!!!

حرك مسؤولياتك داخل النطاق الفسيح لحريتك العاقلة العادلة

ولسوف تتحول هذه المسؤوليات إلى خلق، وإبداع..

وسترى نفسك سيدياً ، حتى يكون مكانك في المجتمع آخر مكان في  
آخر صفٍ..!!

إن الإنسان الذي يباشر مسؤوليته في ظل الحرية، والثقة، يجعل من  
كل كرسي يجلس فوقه عرشاً.. ومن كل عمل تتناوله يداه معجزة..!!

\* \* \*

والحرية والعدل توأمان..

ولن تلتقى قط بظالم، إلا ويحمل تحت ضلوعه روح العبيد، وصغار  
الأذلاء..!!

ولن تجد أحداً يؤمن بالحرية ويقدها، ثم يرتكب ظلماً، أو يقترب  
بغياً..

ترابط عجيب، قلما يجمع بين اثنين، مثلما يجمع بين هذين  
التوأمين الحرية، والعدل..

كن حراً؛ تكن عادلاً..

وكن عادلاً؛ تعيش حراً..

اكفر بالحرية؛ تستبح كل حق..

واكفر بالعدل، تضطهد كل حرية..!!

والظلم كئيب، صغير، مدمر..

هناك حديث قدسي يتحدث الله به عن نفسه فيقول: "يا عبادي.. إنني

حرمتُ الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا" ..

أرأيت ..؟؟

لم يقل الله إنني حرمت على نفسي، إلا هذه المرة..

والله بطبيعة الحال، منزه عن كل نقيصة، فلماذا يؤكد نفي الظلم

عنه، وبهذا الأسلوب الصارم..؟؟  
 إن ذلك كذلك، ليعلمنا، "أن أبا القوانين" التي تحكم الكون كله -  
 هو العدل..

وإذا كان الله الفعّال لما يشاء، قد حرّم الظلم على نفسه، فلماذا  
 يكون الظلم بالنسبة إلينا..؟!  
 من أجل هذا، أقول لك:  
 "حَصِّنْ حَيَاتِكَ بِالْعَدْلِ.."

إن ميزان العدل دقيق.. ولا بد لك من يقظة الروح والعقل لتدرك  
 الفوارق الخافتة بين ما هو عدل، وما هو ظالم..

إذا اختلست من الأموال العامة للأمة؛ فأنت ظالم..

وإذا أسرفت في مالك الخاص بك؛ فأنت ظالم أيضاً..

إذا اعتديت على غيرك؛ فأنت ظالم..

وإذا ابتهجت لعدوانٍ وقع من غيرك؛ فأنت ظالم أيضاً..

إذا اغتصبت حقوق الآخرين؛ فأنت ظالم..

وإذا فرطت في حقوقك؛ فأنت ظالم أيضاً..

إذا أسأت الظن بغيرك؛ فأنت ظالم..

وإذا عرضت نفسك لإساءة الظن بك، فأنت ظالم أيضاً..

إن العدل بعيد الأعماق، واسع الآفاق.. وَتَقِيضُهُ الظلم كذلك..!!

\* \* \*

والعدل، هو التزام الحق..

والظلم، إهدار الحق، أو التحايل عليه..

ولكى تحيا حياة عادلة؛ امض في حياتك وفق الحق وحده..

لا تتخطَّ رقاب الناس في الحياة.. وخذ دورك المشروع دون أن تُنحَى أحداً عن حقه ومكانه..

حين تسعى لمنصب لستَ به جديراً فسعيك هذا ظلم..  
حين تنتحل جهود غيرك، وتعزو لنفسك ما لم تفعل، فانتحالُك هذا ظلم..

حين تختص نفسك بامتيازات لا حقَّ لك فيها، فعملك هذا ظلم..  
حين تلتمس بالوساطة، أو بالرشوة ما ليس لك بحق، فعملك هذا ظلم..

وأنت ظالم إذا احتقرت آلام الناس، ولم تبصر منهم سوى عيوبهم..  
ظالم، إذا قدمت للناس شر ما عندك، وطالبتهم بخير ما عندهم..  
ظالم، إذا لم تقنع بالرغيف الذي معك، وذهبت تقتنص اللقمة التي مع غيرك..

ظالم، إذا حصلت على ثروة، لا يتكافأ معها جهدك المبذول.  
ظالم، إذا حسدت غيرك على فضل يُعجزك نواله..!!

\* \* \*

ليست الحياة الإنسانية مائدة قمار.. ولكنها مُباراة نظيفة تدور في أعلى مستويات النزاهة، والتكافؤ، والصدق..  
وأنجز قوانين الحياة، هو القصاص..

والقصاص يرفض التسامح مع الظلم.. كانه يعلم أن الظلم دمار الحياة وخرابها، ومن ثم، فلا بد من كبحه، وهو في عالم النُطف..!!!  
وإن أصدق تبيانٍ لعدالة القصاص وصرامته ليتمثل في قول الرسول عليه السلام: "أعمل ما شئت.. كما تدينُ تُدان"!!

أجل، كما تدين تدان.. وبالكيل الذى تكيل به، يُكَالُ لك..  
فَحَصِّنْ حياتك بالعدل..  
وأمن مصيرك بالعدل..  
ولا تترك وراءك آثار قاطع طريق..  
بل اترك للحياة عطر، وطهر، وشذاك!!  
إن حياتنا الإنسانية تعتمد فى استمرارها ونمائها - على رصيد  
الخير الذى يُخَلِّفه لها ابناؤها الأبرار..  
كل كلمة طيبة.. كل سلوك عادل.. كل خطوة سديدة - إنما تُشكِّلُ  
الرصيد الذى تنفق منه الحياة على نفسها، وعلى أبنائها..  
ذلك أن الحياة تنمو بالقدرة..  
وكل فرد يستطيع أن يكون قدوةً بالخير الذى معه..  
وعلى الرغم مما يكون لك من خطأ، فأنت قادر على أن تعطى  
القدوة معك من صواب وفضائل - شريطة أن تكون هذه الفضائل ثابتة،  
عادلة، صادقة!!  
فاترك للحياة شذى إنسان، حَمَلْ تبعات رشده فى أمانة..  
وقضى أيامه معها فى نبل، واستقامة، وإخلاص..

\* \* \*

وبعد ..  
وقبل أن أطوى هذه الصفحات، منتهياً من كتابتها..  
وقبل أن تطويها أنت، منتهياً من قراءتها..  
دعنى أذكرك بأن شَحْدَ قُوى الحياة يتطلب أن يتواصى الأحياء  
بالخير وبالحق دوماً، وأن يُذَكَّر بعضهم بعضاً بمواثيق النهوض..

وأظننا عبر هذه الصفحات، قد توأصينا وتذاكرنا..  
 ولسوف يحمل كل منا من أمانة هذا الحديث وتبعاته ما يطيق.  
 وسيكون أكثرنا انتفاعاً به، أكثرنا استجابة له..  
 وصحيح أن العمل وفق الحق والخير، أمر صعب.  
 ولكن اذكر جيداً، أنك إذا لم تواجه الصعاب من أجل بلوغ حياة  
 عظيمة مستقيمة..

فستواجه نفس الصعاب أو أشد - حين تعاني حياة هابطة سقيمة..!!  
 ولأن تُعاني متاعب الصعود إلى القمة.. خير وأهدى من أن تعاني  
 متاعب الانحدار إلى السفح..!!!  
 فاستعن بالله، ولا تُعجز..  
 وفي غبطةٍ، وتحمل تبعه الوجود..  
 وفي شجاعةٍ، تقبل أمانة الحياة..



www.alkottob.com



فى هذا الكتاب

الوصية الأولى  
أهلتُ عصور الحب  
فودع الكراهية

١١ .....

الوصية الثانية  
لا تدع الخوف يفكر لك، أو يُشير عليك  
وطهر منه إرادتك، وعش قوياً

٣٧ .....

الوصية الثالثة  
اسبح قريباً من الشاطىء..  
وارتكب أنظف الأخطاء..  
ولا تقايض على الفضيلة بشىء..

٥٧ .....

الوصية الرابعة  
احمل روح الرواد  
وابحث عن الدروب غير المطروقة  
واجعل مناط سعيك:  
" ما لم يفعله من قبل أحد .."

٨٣ .....

الوصية الخامسة لا تَعْشُ وعلى عينيك عِصَابَةً..

وامض بصيراً..

في يمينك : "إلى أين..؟"

وفي يسارك: "لماذا؟"

١٠٣ .....

الوصية السادسة عِشْ صديقاً طيباً

وليكن "اسمك" نداء النجدة للمكروبين..

١١٧ .....

الوصية السابعة اقرأ في غير خضوع

وفكر في غير غرور

واقنع في غير تعصب

وحين تكون لك كلمة، واجه الدنيا

بكلمتك..

١٣٥ .....

الوصية الثامنة  
تقبّل وجودك، وطوره..  
واختر حياتك، وعشها..  
وابق إلى النهاية حاملاً رايتك..

١٥٧ .....

الوصية التاسعة  
ولّ وجهك شطرَ الله، فإنه حق.  
وضع يدك في يده..  
فإنه نعم النصير..

١٧٧ .....

الوصية العاشرة  
وطّد مسؤليتك بالحرية..  
وحصّن حياتك بالعدل..  
واترك للوجود شذاك..!!

٢١٣ .....



www.alkottob.com